

الدَّارونِيَّة المُتأسلِمة

عمرو عبد العزيز

النسخة الثالثة | 2021

مقدمة النسخة الثالثة

بسم الله الخالق ذي الجلال، بسم المبدع المستحق الحمد في المكره والمنشط، ثم الصلاة والسلام على رسول الله، محمد الصادق، سيد الخلق أجمعين، وآله وصحبه أجمعين.

فإنه لما كانت النظرية الداروينية هي مركز العلوم البيولوجية المعاصرة، وقلب ميزانها ونموذجها المعرفي الوحيد المُعترف به؛ كان من الضروري أن يتعرض طلبة العلوم البيولوجية المسلمون إلى استفزازات مستمرة في كلياتهم، خاصة إن درَّس لهم المادة البيولوجية أساتذة ماديون علمانيون وعلمويون، لهم وِتر مع الإسلام، وثارات مع نماذجه، نتاج تقديس الغرب ونماذجه، وغياب درك الفلسفات وتاريخ الأفكار وسياقات ظهور النظريات العلمية.

وقد كان تعرضي للجدال الإسلامي الدارويني حادا منذ عام 2005، حينما كنت أدرس دبلوم الدراسات العليا في الكيمياء الحيوية بجامعة الإسكندرية، إذ أن أستاذ فسيولوجيا الأعضاء العجوز، الذي قيل لنا بأنه قضى أغلب حياته العلمية في أمريكا، كان دائم التعرض للنموذج الدارويني، وكان عارفا بالفلسفة وراء الإيمان به، فكان يلح على أن من أوجب واجباتنا كباحثين علميين بيولوجيين أن نفصل العلم عن الدين، وأن هذا النموذج إن لم نؤمن به، فعلينا أن نعرف قصورنا العلمي، ولم يكن من المهاجمين الشرسين للدين، كبعض الأساتذة الآخرين العلمانيين الذين كانوا يبينون ازدرائهم للإسلام بتعمد استفزاز المنتقبات والملتحين وكل من يحترم الملة، بل كان يدعو إلى علمانية علموية محايدة، لا تزدري الدين؛ بل لا تأبه له إن شئت

الحق! فليقل الإسلام ما يريد، وليقل العلماء النقيض، وواجبنا أن نكون في صف العلماء وحدهم لا شريك لهم!

ولما لم أكن آبه بالخوض حينها في تلك الاستفزازات، لأن فارق السلطة بين الأستاذ والطالب في النظام الجامعي لا يسمح لنا بالمعارضة الحقَّة، ولا يقبل بالجدل الحاد، إذ كلما فلجت حجتك، كلما زادت فرص أن يحفظ أستاذُك اسمك، والويل لك حينها في النتائج النهائية للمادة / إلا أن ما صدمني ذات يوم، أنه قد استعان في دعم منطقه بكتاب الدكتور عبد الصبور شاهين رحمه الله، وكنت أعلم حينها طرفا مما يدور من معارك حول سقطته (أبي آدم)، فقال الأستاذ أن ها هو أحد علماء الشريعة قد ناصر التطور! وكنت أعلم أن موقف الأزهر مع أطروحته كان كعهدنا به - داعيا للفخر! - إذ أعلن أن رؤية الدكتور شاهين لا تخالف الشرع! ولم يأتنا هذا الإعلان بغير ما يتوقعه العالمون بالعاملين في تلك المؤسسة!

قال الأستاذ: إن كان هذا هو موقف الشرع؛ فلِمَ لا نسلم إذن للدارونية؟! فكان يطالبنا - بلسان الحال - أن نرفع الراية البيضاء؛ فإذا كنا ساخطين على طرحه القائل بوجوب انفصال الدين عن العلم؛ فها قد ظهر من يزاوج الدين بالعلم، والإسلام بالتطور، فلنأكل هنيئا ما أوُلِمَ لنا!

وأحسب أن هذا الطرح لم يكن ذائعا حينئذ في الكلية، إذ جرت العادة على أن الأساتذة بين مسلمين محافظين يُدرسوننا تلك النظرية مع تعليقاتهم المحايدة إن لم تكن الرافضة، وإما علمانيين علمويين متعصبين يرون النظرية جزءا من كيانهم العلماني لابد أن يُدافَعوا عنه كفاحا، بل أظنهم كانوا يوجبون التركيز على مصادمته للدين الذي تشمئز منه قلوبهم، وتنفر عنه عقولهم. ولم أكن قد تعاملت

حينها مع النموذج الثاني، وكان نادرا في هذا الوقت، غير أن زوجتي، التي كانت تدرس حينها في قسمي النبات والكيمياء بنفس الكلية، قد تعرضت له غير مرة.

وقد طلبت من السلفيين والمتعضين عامة من هذا الطرح أن نذهب إلى الأستاذ في مكتبه ونناقشه، مستغلين طابعه غير الانتقامي في النقاش، وصبره الذي أذهب عدم خشيتنا من النتائج الوبيلة لمثل هذا الفعل، فذهبت إليه ومعي قلة، إذ أن السلفيين أغلبهم تراجع لأنهم كانوا يرونه نقاشا خاسرا، وأن الرجل سيدمر الحجاج بعلمه، ولا أنكر أن هذا رأي فيه وجه، حينما أنظر إلى المشهد من مكاني هذا بعد خمسة عشر عاما، لكن حمية الشباب والثقة العمياء بالنفس حملاني على الذهاب إليه في مكتبه وجداله، ولا جرم كان نقاشا أبتر، فبالرغم من أني ومعي زملائي قد جادلناه بصورة طيبة - وكان الرجل يجهل أبسط معارف الشرع، ما ساعدنا على التحكم في النقاش - إلا أنه قد وصل في النهاية إلى المقدمة الرئيسية التي خرج منها وعاد إليها: يجب فصل العلم عن الدين، والعلم مقدم لا ريب / وبان أن استعانته بكتاب الدكتور شاهين لم يكن سوى لإلزام المخالف بما يؤمن به، أي تقدير علماء الشرع ومؤسساته ممثلة في الأزهر، لا في إطار اعتقاد صحة كلام الرجل أصلا! وسترى حينما نتعرض لرؤية الدكتور شاهين في هذا الكتاب كيف أنها لا تدعم العلم ولا تنصر الدين، وستتأكد أن جمهرة اللائذين بها لم يقرأوا للرجل حرفا من الأساس!

وقد كان هذا أول صدام عملي في حياتي مع تلك النظرية، التي سميتها فيما بعد الداروينية المتأسلمة، ثم تلت ذلك مرحلة من الاشتغال بحياتي العملية، ولم أتعرض أثناء ماجستير الميكروبات لأستاذ علموي ولله الحمد، فبالرغم من أنه كان بين مبنى علوم الميكروبات ومبنى الكيمياء الحيوية شارع واحد في الكلية، إلا أن فارق العقليات والإيمانيات كان مرتفعا لصالح أساتذتي في القسم الأثير، قبل أن يُرجعني إلى

المعركة كتاب صنع دويا في الساحة الشبابية، اسمه (كيف بدأ الخلق)، كان قد كتبه الدكتور عمرو شريف، وهو طبيب مصري متخصص في الجراحة، ركز اهتمامه منذ العقد الأول للألفية على مناهضة الإلحاد، بخلطة متفلسفة علموية، فاغتر البعض بهذا المنهج، وظن أنه الأصلح لمناهضة العلموية العلمانية، أو الإلحاد الحديث المرتكز على العلوم بشكل عام، وقد جهر صراحة في هذا الكتاب بمعتقده المُقدِّس للدارونية، حتى ذمَّ علماء الأمة سلفا وخلفا، الذين تخاذلوا عن تحقيق أمر الله في قوله (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)، واستندوا في حشو التفاسير إلى الإسرائيليات والخرافات، بينما حقق داروين - رضي الله عنه! - الآية، فطاف الأرض، واكتشف كيف بدأ الخلق، وجاء الدكتور لينبهنا بجلال قدر هذا الرجل العظيم، وصحة نظريته، وحماقة التراثيين، أي كل من تمسك بالتفاسير والسنن والإجماعات التي لم يخالفها بشر ولا حجر في أمة محمد قبل داروين، وكان الدكتور يستند في طرحه إلى الهيكل العام الذي صنعه الدكتور عبد الصبور شاهين رحمه الله.

فكان هذا هو الاشتباك الثاني لي مع تلك النظرية، وكتبت مسودة متعجلة نشرتها على الإنترنت، ولم أستطع إتقانها إذ تصادف وقت كتابتها مع الانقلاب، وإصابتي بنزيف من جراحة استلزمت بقائي مستلقيا فوق السرير، لكنني جلست إلى الجهاز وظللت أكتب لثلاثة أيام، فاحتد النزيف، وأفقت منه إلى الحادث الكبير، وبعد أشهر طويلة مظلمة لا أعادها الله، عدت إلى الاشتباك، وراجعت الهنات قبل إصدار النسخة الورقية الأولى، وقد كنت محتدا فيها على الدكتور عمرو شريف، ثم قرأت رأيه وتعليقه، وبمرور عامين كتبت طبعة ثانية أقل حدة، وأتقن من الأولى في بعض المواضع التي لم تُحقق بصورة كافية، ثم أني تابعت ما يصنعه الدكتور على

صفحته مع المتابعين عن كثب، وندمت على أسلوبي معه، لا في الطبعة الأولى، بل في الطبعة الثانية! فقد صدمني التدليس في إجاباته، وسبه المعارضات القوية بمنطق علماني متعجرف، ولم يتوقف عن ذم السلفيين باعتبارهم أبرز التراثيين، ثم أن من أتاه بما ينقض دعواه أن قوله عليه إجماع المجتمع العلمي وُكِزَ وغُمِزَ، ولم أسلم من تطاوله حينما تحديت ذات مرة أن يخبرني باسم مؤتمر واحد يناصر التطور الموجه، بشرط أن يكون عالميا محترما ذي جلال في الأوساط العلمية التي يسبنا من أجلها، وينسب نفسه إليها، فلم يجد سوى اسم واحد لمؤتمر اجتهدت في البحث عنه بالمواقع الكبرى والرئيسية دون جدوى، فعلمت أنه لا يخاطبنا نحن القادرين على البحث ومعرفة أي المؤتمرات العلمية تتوافر فيه تلك الأشراط وأيها لا ينطبق عليه حرف منها، بل يخاطب المتابعين العاجزين عن البحث، كما سيصنع بعد ذلك بعض العلمويين من مقدمي برامج البوب ساينس: ارم لجماهيرك اسم ورقة علمية، واسم مؤتمر علمي، وقل لهم أن يبحثوا عنه! لن يبحث أحد! الجماهير تريد التبجح بالقدرة، لا القدرة ذاتها! تريد أن تشهد زعمك أنك غالب قاهر، واتهامك غيرك بالجهل، ولن تقرأ حرفا في الأوراق التي وضعتها، ومن سيقرأ منهم لن يمتلك القدرة على البحث عن المزيد من الأوراق والتعرف على الخريطة الحقيقية لموضع هذا الزعم من الجدل العلمي، ثم لو علِم الموضع فليس من السهل أن يدرك لِمَ الموقف كذا أضعف ويُدافَعُ عنه، بينما الموقف كذا أقوى منطقيا ويُنبذ! وحتى من يصل منهم إلى ذلك العمق، نادرا ما يفقه الصورة الفلسفية الكلية الغربية التي ثار فيها هذا الجدل أصلا!

وفي الأعوام الأربعة الأخيرة، قابلت النظرية مرتين إضافيتين، أولاهما في دار العلوم، إذ أنني لحظت أثناء دراستي مادة علم اللغة أن أستاذ المادة يقطع بالرأي القائل أن اللغة اصطلاحية، لا توقيفية، وكان المستند في ترجيح هذا الرأي كلاما تطوريا محضا،

فكأنما حسمت النظرية ذاك الجدل التراثي الشهير في علمي اللغة وأصول الفقه عن أصل اللغة، وحدَّثتُ في ذلك بعض من أعرفهم من أهل الدار، وطولِبت بأن أكتب عن ذلك، لكني نسيت أو تكاسلت، وقد ذكرت لهم إن الدارونية ذات أثر ظاهر في علمي الأصوات واللغة المعاصرين، فبسبب النقل عن النظريات الغربية، التي تدور كلها في فلك التطوُّر، قُدِّمت النظريات اللغوية الحالية كأنها مسلمات مقطوع بها، فيبدو للدارس كأنما كان علماء المسلمين المتقدمين يتناوشون لعلة الجهل، وأن الأمور حاليا مقطوع بها، وليس الأمر كذلك!

ثم كانت المرة الثانية في كلية العلوم السياسية، وكانت ممتدة، ولم تقتصر على مواد قليلة كما كان الحال في الدار، إذ يوشك التطور أن يكون عُمدة الأيدولوجيات كلها، وآثاره في كل ركن من نظريات العلاقات الدولية والاجتماع السياسي وعلم النفس السياسي وغيرهم. وكالمعتاد، يُسلِّم العديد من الأساتذة به كخلفية لشرح النظرية، مع أني رأيت أن بعض تلك النظريات، أو محتواها، يُمكِن التسليم به، دون ثبوت التطور أصلا، ولن تختل النظرية أو تسقط، بل ربما تتماسك بصورة أكبر؛ وشرح ذلك يطول!

أما عن باقي مجالات اهتمامي، كالمصريات على سبيل المثال، فمعلوم أنها مبنية كلها على نظرية التطور، بكافة أركانها، كالتطور الديني والاجتماعي والسياسي، إلخ.. ودونك، مثلا، حديث بعض علماء المصريات عن (اقتباس!) بني إسرائيل فكرة الحساب الأخروي من المصريين أثناء وجودهم الذي امتد لقرون بداخل مصر، ثم إدخال ذلك المفهوم في نماذج الأديان الإبراهيمية المتتالية، وصولا إلى الإسلام!

إن النظرية كالسرطان، ممتدة في كل موضع علمي بعالمنا الحالي، سواء كانت تلك العلوم بحتة، أو إنسانية، أو اجتماعية أو حتى لغوية وشرعية! ولا توجد دراسة دخلتها إلا ولمحت عرشها في الخلف، حتى لو كان مُحاطا بالظلال!



ثم أني كنت قد قررت قبل عامين وضع نسخة جديدة للكتاب، ليست تعديلا لما سبق، كما بين الطبعتين الأولى والثانية، إنما هدم وإعادة بناء بصورة كاملة، لتحديث المصادر قدر الإمكان، وإصلاح المعايب الأسلوبية، وتغيير بنية الفصول بصورة كاملة، لتصبح أكثر وضوحا وبيانا، سعيا في النهاية لإصدار نسخة مُتقنة ترضيني ولو لأعوام خمسة لا غير- إذ أني أعتبر استمرار قنوعي بكتاب لي بعد خمسة أعوام هُجنة أعيب نفسي بها، فذاك يعني أن معارفي وأساليبي لم تتطور خلال كل تلك المدة! وعليه من الطبيعي أن لا يكون هذا الكتاب مرضيا للبعض، وأنا أرحب بكل نقد له ما دام ينطلق من أرضية مشتركة شرعيا، إذ أنني لا أوجه كتابي لملحد أو علموي بصورة رئيسية، فهذا أنصحه أولا أن يؤسس نفسه، ويرضخ لحاكمية الشريعة، وكمال الدين، ثم ليقرأ هذا السفر، أما أن يهجم عليه هكذا بلا تجذر في الإسلام، فلن يرضيه حرف كتبته بعد عنوان هذا الفصل: المقدمة!

والكتاب في صورته الجديدة غير منقطع الصلة تماما بالقديمة، فما زال مكوَّن من فصول ثلاثة رئيسية: أولها يعرض النموذج (الباراديم) التطوري، فيبين منهج الداروينية المتأسلمة وظهورها، وثانيها يعرض النموذج التطوري في بعض صوره العملية، وقد اخترت الفيلوجيني والباليوأنثروبوجي تحديدا، وهو الفصل الذي تغير بصورة شبه كاملة عن النسخة الأولى بطبعتيها، وأعرض في ختامه للاستخدامات العملية لهذه النماذج في بناء الحجاج الداروني المتأسلم، ثم الفصل الثالث، وأعرض

فيه النقاش الشرعي لحجج الداروينية المتأسلمة، وكذلك كتاب أبي آدم للدكتور عبد الصبور شاهين، وأخيرا، الفصل الرابع، وهو فصل جديد، أعرض فيه ملامح النظرية الإسلامية للخلق والتطور، كي تكتمل الصورة تماما عند القارئ، إذ أنه قد يشعر في مرحلة ما أن المسألة فوضوية، وأن الجميع لا يملك صورة عن الخلق من الأساس، وذاك خطأ.

فأسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب المسلمين، وأن يكون من صالح الأعمال التي تسقط عني آثامي يوم القيامة، ولولا كثرة الذنب ما كان كثرة الاجتهاد!

وأسأل الله أن يفرج عن المسلمين، ويرحم قتيلهم، ويفك إسار الصالحين منهم، ويهدم بنيان الطاغين في كل مكان وزمان.

الفصل الأول: النموذج الداروني ومنهج الهرم المنكوس

تمهيد.

في مستهلِّ ذلك الفصل، أوجز قصة ظهور الداروينية في العلوم، وأختار النسخة الأقرب والأصغر من الرواية، إذ أن هناك توجُّهين لسرد تاريخ فكرة التطوُّر، أو توالد الكائنات بعضها من بعض: الأول، توجُّه يُنقِّر عن أصولها منذ العصر اليوناني، وحضارة الإغريق، ولمحات تواجد الفكرة في التاريخ الفلسفي، على عادة الغربيين في نسبة كل فكرة عندهم إلى جذر يوناني أو روماني، فأناكسيمندر وإيمبيدوكليس هما من افتتحا فكرة التكيف البيئي، وديموقريطيس هو من أسس الاعتقاد بأن أصل الكائنات الحية كان مجهريات دقيقة، وهكذا (1) (2). والثاني، توجُّه يكتفي بالبدء من عند داروين، الذي استثمر الفكرة بصورة منهجية، وبعث فيها الحياة بأدلة مادية، وخرج منها بنظريَّة تامة، كما بدا في حينها، وهي النسخة التي أنشرها هنا.

1. الفتح الداروني.

في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، شارك تشارلز داروين، دارس الطب سابقا، وعالم الطبيعيات حينها، في رحلة على السفينة بيغل، التي كان مقرر لها أن تطوف بحار العالم للاستكشاف، خاصة أمريكا الجنوبية.

صعد داروين السفينة، وفي ذهنه فكرتان، اختمرتا معا طوال الرحلة، الأولى وراثية من لامارك، الذي تعرف على أفكاره قبل سفره، أثناء دراسته في كلية الطب، وخاصة نظرية حدوث انحرافات وراثية عبر الأجيال Transmutation Theory، والثانية جاءت من الجيولوجي ليال، الذي تحدث عن نظريته (وحدة وتيرة التشكُّل Uniformitarianism)، وخلاصتها أن الأرض كان لها عبر تاريخها نظام واحد في التشكُّل، وأنها في الماضي كما في الحاضر، لكننا لا نلاحظ ذلك لبطء تلك الوتيرة. وقد زاد تقدير داروين لهاتين النظريتين أثناء رحلته، فما إن انتهى تجواله حتى بدأ في وضع نظريته عن الانتخاب الطبيعي: أن تنوع الكائنات صادر عن عوامل خارجية طبيعية، وأنها ذات أسلاف مشتركة.

وقد ظلت نظريته تدور بين عقله وأوراقه، حتى نهاية الخمسينيات، حينما أصدر كتابه الشهير الذي عرضها فيه مكتملة، مع عدم مناقشته لازم نظريته تلك، ألا وهو تطور الإنسان من سلف مشترك هو الآخر!

يمكن فهم جذور تأثره بالنظريتين السابقتين: فمن لامارك، أخذ فكرة الانحرافات الوراثية عبر الأجيال، وأن لا شيء يبقى على حاله مع التدخلات الخارجية، ومن ليال، أخذ فكرة ثبات قوانين الطبيعة في التشكيل، فهي في الماضي مثل الحاضر، لكن الملاحظة صعبة، بسبب عامل الزمن، وبالتالي تبدو فكرة التدخل القدري المفاجئ والمعجز في الخلق، شاذة عن الطبيعة، ومنفرة لعلمائها. ضع هاتين مع بعضهما، تعرف كيف نبتت الفكرة عند داروين!

وقد كان توماس هكسلي هو أول من مد النظرية على استقامتها، فأصدر عام 1863، بعد أربعة أعوام من ظهور نظرية داروين، كتابا تحدث فيه عن أصول الإنسان، وهو أول من اقترح التشابه بين الإنسان والقرد الأفريقي، وأول من تحدث

عن استعمال الحفريات الموجودة كأدلة وجود سلف مشترك للإنسان، على ندرتها في حينها.

وقد قطع داروين صمته في عام 1871، حينما نشر كتابا يتحدث فيه عن ارتباط أصول الإنسان بالحيوانات الأخرى، محاولا إثبات ذلك برصد التشابهات بين الإنسان وأشباهه في مملكة الحيوان، وخاصة القردة، وقد ناقش اختلاف الأعراق حينها متخذا من النظرية العنصرية التي كانت سائدة في عصره، والتي تجعل البيض هم الأرقى في سلم التطور، والسود هم الأدنى، أساسا لتفسير تطور الإنسان، فكان مما قاله إن الإنسان تطور من سلف هو شبيه قرد، وأنه صار يمشي على قدمين فقط بدلا من أربعة لاعتياده استخدام اليدين في إنجاز أعماله، وتوقع أن يكون الإنسان الحديث قد تطور في أفريقيا، ولكن افتقرت نظريته تلك إلى الأدلة الأحفورية المتنوعة، لذا تميز النشاط العلمي الطبيعي في نهاية هذا القرن باكتشافات تعضد هذه النظرية، ورفد داروين بما نقصه حينها، أي السجل الحفري المُنظِّم في نموذجه الخاص (البارادايم الناظم له) (3).

لكن لِمَ كانت نظرية داروين جذابة حينها بهذا الشكل؟! إن أوروبا خلال أعوام قليلة من ظهور النظرية صارت مهووسة بصناعة السجل الأحفوري وتزويده بالأدلة، في اجتهاد كثيف مدهش، لا يكاد يشابهه أي عمل آخر في الحقل العلمي بتاريخ البيولوجيا، فمثلا، يعرف كل عالم ميكروبات كيف كان البحث بطيئا في تخصصه، رغم أنه مدهش وضروري، ورغم أن أوروبا منذ لوفنهوك في القرن السابع عشر على الأقل وهي تعلم بوجود كائنات مجهرية؛ لكن مع ذلك ظل نمو هذا الحقل بطيئا حتى معركة باستير وكوخ! ما سبب هوس الغرب بداروين تحديدا وتبنيهم المجنون لنظريته في الأكاديميا؟!

لفهم هذا، لابد من إدراك السياق الاجتماعي العلماني لقرن داروين، قرن سيادة العلمانية والمادية، وجبروت الوضعية، واحتقار الغيبيات، والهوس بهدم كل معرفة دينية المصدر. فقبل داروين، كان العلم عاجزا عن تقديم تفسير كلي، ونظرية كبرى، لوجود المخلوقات وتنوعها، وحجم التعقيد في تركيبها، وكانت النظرية الوحيدة الموجودة هي ابنة الدين: أن الله قد خلق الكائنات، مباشرة، وأن صورتها متقنة وثابتة.

كما أن العالم التوراتي تحديدا، كان لديه مشكلة إضافية، لا نألفها عندنا، وهي أن أحد أركان نظرية الخلق التوراتية هو تقدير عمر الأرض بعشرة آلاف عام فقط – ومشكلة عمر الأرض هذه كانت من أوائل المواطن التي بدأت بسببها الحركة المضادة لتفسير الخلق التوراتي.

إذن كانت هناك مشكلة في البراديم السائد، الموروث من معتقدات كنسية، لكن لم يكن هناك براديم علماني حقيقي يقابله، وغابت عن العلوم الأحيائية النظرية الكبرى التي تجابه وتصمد. وكما يزعم توماس كون: عندما يصبح البراديم القديم عاجزا عن ملاحقة الاكتشافات، ينتظر العلماء الوثبة المفاجئة إلى براديم جديد، يحتفون به ويقدسونه!

وقد ظلت الساحة العلمانية فارغة من نظرية أحيائية لا دينية كبرى، إلى أن جاءت نظرية داروين، فزعمت أن كافة أنواع الكائنات لم تكن إلا من أصل وسلف مشترك، تطور عبر الزمان من كينونة بدائية، صعودا إلى كائنات أخرى أكثر تركيبا، ثم أن المَوَلَّدات الأخرى قد تطورت وتكيفت مع بيئتها، لتُخرج أنواعا أخرى، تتطور بدورها، وهكذا. نشوء من أصل واحد، ثم ارتقاء بالتطور إلى تشكيل متنوع من الكائنات.

كان هذا بمثابة أعظم هدية للعلموية العلمانية في ذاك القرن الأنكد، إذ ملَّك العلماء مستندا علميا فيه بعض التماسك، يدعم قدرة العلم المادي على تفسير كل شيء دون الحاجة إلى غيبيات أو ميتافيزيقا تعتمد في تفسيراتها على وجود إله خالق أو قوى خفية؛ فالتفسير الذي ينال لقب العلمية، هو المشيد فوق فلسفات إلحادية قاطعة لا غيبية أو إلهية؛ وقد راج قبل هذا العصر المبدأ القائل بأن التفسير العلمي لا يكون عقلانيا، بل لا يكون علميا بحق، إلا بوضعه الطبيعة مكان الإله. إن جاذبية النظرية الدارونية هي في نقضها للنموذج الديني الموروث، وليس مجرد قوتها الذاتية.

كما أن الدارونية بدت سلسة على الأفهام، شافية لعيِّ العلموية، ولم يَفْضُلها غيرها في زمانها – وإلى اليوم – لبيان كيفية وجود المخلوقات دون تدخل إلهي غيبي. هكذا راجت ورسخت، حتى تحولت إلى المركز والنواة الصلبة لعلم الأحياء، بل وكل ما تحته من علوم، كالأجناس، والإحاثة، وغيرها، وما تداخل معه كالطب.

الآن، ما مصير أنصار النموذج (البراديم) القديم، مُنكري التطور؟

بمجرد سيادة الدارونية، صُيِّر مُنكِرها نابذا لأحد أصول العلم الكبرى، ومُحجما عن التسليم لنواة حقل فسيح كعلم الأحياء، فكان من الطبيعي أن يضجَّ القوم بطلاق العلم والدين، إذ ظلت بذور التراث الديني باقية في التربة العلمية زمنا، ولم يجتثها بحق إلا تلك النظرية تحديدا، فلم يعُد لُغز الكون الأكبر هو نشوء الخلق، وتنوع المخلوقات!

وانحازت العقلانية الإلحادية لجانب العلم الطبيعي، وظهر المستمسك بالتفسير الديني للخلق في لبوس أهل الغباوة والتخلف، وإهاب التعصب العقدي السمج، وجموع فاسدي العقول كارهي تقدم العلوم، المؤمنين بتفسيرات سخيفة المصدر، واهية المبنى، عن نشأة الكون وتنوع المخلوقات / وقد بدأ القرن العشرون على هذا

الحال التعِس لسيادة الدنيوية والعلموية، وترسخ في الغرب عدم إمكان تلاقي العلوم مع نصهم المقدس، الإنجيل أو التوراة.
وبدخول هذه النظرية إلى بلادنا، أضيف الإسلام هو الآخر إلى قائمة الأديان غير المرحب بها، لصلابة التفسيرات القرآنية والسنية الواضحة في نشأة آدم عليه السلام بالذات، وإن كنا قد شاهدنا محاولة مبكرة لوضع النظرية كلها في إطار الإمكان الشرعي، من قِبل الشيخ محمد عبده - حسبما نقل عنه الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار (4)، غير أن هذا راجع إلى ولعه بالمنتوج الغربي في عصره، وهو الشيء المعروف عنه.

2. ظهور التطوُّر الموجَّه.

بمرور عقود القرن العشرين وتوالي المكتشفات، اهتز الإيمان بالتفوق المطلق للعلوم ويُسر تفسيرها لكل شيء، إذ كُشِفَ شِسْعُ المساحات المظلمة التي يعجز العلماء عن إبصارها، فقل الوثوق في العقلانية العلمية، وتمرد البعض على التعصب للوضعية الجامدة عامة، والنظرية الداروينية المُبسَّطة خاصة، وكان أن زادت القلاقل بثبات ارتباط العلم بالتفسيرات المادية الإلحادية، واستقرار هذه الهيئة للعلوم تاريخيا وواقعيا، في وقت شهد الغرب فيه صحوة إيمانية، حتى ظهرت محاولات إيجاد تفاسير تؤلِّف بين منتوجات الوضعية، العقلانية، وبين المعتقدات الدينية المسيحية واليهودية.
وقد انتبه المؤلفون إلى الثغرات التي تعاقَب ظهورها ببنية النظرية، والتي اضطرب البارادايم الداروني في معالجتها، فادعوا أن الأديان وحدها هي القادرة على سد فجواتها التي لم يفلح التطوير كثيرا في إخفاء رُقعها المتناثرة في أثوابها، ما بلي منها وما قشُب!

حينها صولِح في أحد الأركان بين الدارونية والدينين المسيحي واليهودي، تحت رعاية علماء من أشباه القساوسة أو الحاخامات، وظهرت إلى الوجود نظرية (التصميم الذكي)[1] التي استند إليها كثير من رواد هذا التوجُّه في صناعة نظريتهم الائتلافية (التطوُّر الموجَّه): وفيها يُعترف بالتطوُّر كحقيقة علمية، وتُنفى عنه العشوائية بالتصميم الذكي، ويُستدلُّ من ذلك أن الإله قد قاد التغيُّر عبر ملايين السنين، ولم يخلق الكائنات المتنوعة دفعة واحدة.

إذن التطور الموجَّه هو = (إيمان بالتطور + إيمان بإله) + الإيمان بالعشوائية.

وقد كان من الطبيعي أن يتشبث العلمويون بأطروحتهم المادية، ويسخرون من عودة العلوم إلى أحضان الدين بقيادة عقلانية جديدة، ومع مرور الوقت ظهر أن جانب العقلانية[2] يميل إلى جانب أنصار (التصميم الذكي)، بينما بقي الجانب العلموي غير الإلهي داعما لكل تفسير ينصر التطور وإن وَهيَ منطقه، واضطرب حجاجه، وطاش سهمه.

غير أن النظرية لم تتأثر كثيرا مع انخفاض درجة العقلانية والتماسك، وذلك لعوامل ثلاثة:

أولا: بسبب طبيعة العلوم البيولوجية المعاصرة، المَسوُدَة من الوضعية، تلك العقيدة العلموية الرافضة لذكر الغيبيات في العلل، والمُحقِّرة من يُسبِّب بغيرِ ملموس مُقاس. وكما قال بيركلي قديما في مقالته المُقدَّسة عند جمهرة العلمويين الوضعيين: أن تكون موجودا، يعني أن تكون ملموسا esse est percipi.

1 **نظرية التصميم الذكي**، هي شكل حديث من حجج الإبداع، والتعقيد، والتناغم، المعروفين في نقاشات أدلة وجود الله سبحانه، وقد حاجج بهم الأنبياء، وذكرهم الله سبحانه وتعالى في كتابه الأعظم -ولا تقتصر النظرية على أنصار التطور الموجَّه، بل يستخدمها المؤمنون بإله بصورة عامة في حجاجهم، سواء كانوا من أنصار الخلق الخاص، أم التطور الموجه، لكن في الإطار الجدلي، اعتاد الجميع الإشارة إليها، كمرادفة لاصطلاح التطور الموجه من الخالق.

2 لا أقصد في هذا الكتاب بالعقلانية سوى معنى خاص: وهو معقولية التفسيرات، وتلاؤمها منطقيا في بناء مُحكم.

وثانيا: بسبب الهيمنة العددية للعلماء التطوريين، والمركزية الثقيلة لهم في الأكاديميا.

وثالثا: بسبب طبيعة التنشئة العلمية للبيولوجيين على كون نظرية التطور بصورتها العلموية = حقيقة ثابتة لا ينازعها إلا سفيه، كحقيقة أن الشمس نجم ساخن.

وهي عوامل تدفع الباحث للفرَق من التحرك في غير إطارها، إذ يُدرك الحقيقة العملية مبكرا: أن تُقدِّمَ تفسيرا لمكتشفاتك وتجاربك، واهن البناء العقلاني، غير أنه يدعم النظرية، خيرٌ لك من تقديم ما يُخالفها مهما عظُمَ نتاجُك! وسنناقش كل ذلك بعد قليل، حينما نتعرض للمنهج.

بذا يمكن القول إن العقلانية والعلم قد انفصلا في هذه القضية[3]!

وحينئذ دارت المعركة التطورية - التطورية بين طرفين:

الأول والأقدم في الحقل المُعاصِر هو العلموي زاعم أن الطلاق بين الدين والعلم كان بائنا بلا رجعة، وأن العقلانية هي ما تلتزم هذا الطلاق / والثاني ذو الديانة، الذي يرى أن العقلانية الحقة توجب تكامل الدين والعلم، وإحالة إمكان انفصال أيهما عن الآخر.

3 أو بعدم الانفصال إن عُرِّفت العقلانية بأنها ما لا يلتجئ إلى غيب، وهذا هو الأرجح عندهم.

3. مذهب الخلق الخاص.

هو أقدم المذاهب، وملخصه خلق الله سبحانه كل كائن على حدة، وأن الإنسان ليس ذو سلف أسبق، مع اختلافات بين النظرية الإسلامية والنظريات التوراتية، نبينها في فصل النظرية الإسلامية للخلق.

وقد طوَّرت تلك المجموعة حججها بالتصميم الذكي، ورفضت التطوُّر بكافة أشكاله، سواء للإنسان أو الحيوان، مؤكدة على التفسير التوراتي التقليدي لخلق الكون.

إذن، يتكون **المذهب الخلقوي في الغرب من الآتي = الخلق بالمفهوم التوراتي التقليدي + التصميم الذكي - (العشوائية + التطوُّر).**

وبإضافته تكون المعركة ذات المسارات الآتية:

مذهب التطوُّر الموجَّه ضد المذهب الخلقوي الخاص.

مذهب التطور الموجَّه ضد مذهب التطور العلموي.

مذهب التطوُّر العلموي ضد المذهب الخلقوي الخاص.

مع ملاحظة أن أنصار التطورية العلموية، يعتبرون التطور الموجَّه من جملة الخلقوية، ولا يتعاملون مع أنصاره إلا بنبذ وإغلاظ باعتبار نظريتهم ليست سوى محاولة ماكرة للالتفاف على الوضعية العلمية وعدائها الغيبيات.

تلك بإيجاز هي خريطة ساحة الصدام الغربي حول أصل المخلوقات الحية.

وبما أننا نعيش عصر التبعية العلمية، مفعول بنا، مضطربو الأفئدة، وجلون من المخالفة، فإن خالفنا فرِقنا من الجهر بالعصيان = فقد أُفدِحنا بمواطأة أناس منا ذاك الطيف النكِد، فصار بيننا من ينضوي إلى التطوُّرية العلموية، زاعما أن لا علاقة بين الدين والعلم، ومنا من يشايع التطوريَّة الموجَّهة، وأجزل كل فريق وسعه وبذل إطاقه في التنظير لما ختله الشيطان به فظنَّه الحق.

4. أسلمة التطوُّر الموجَّه.

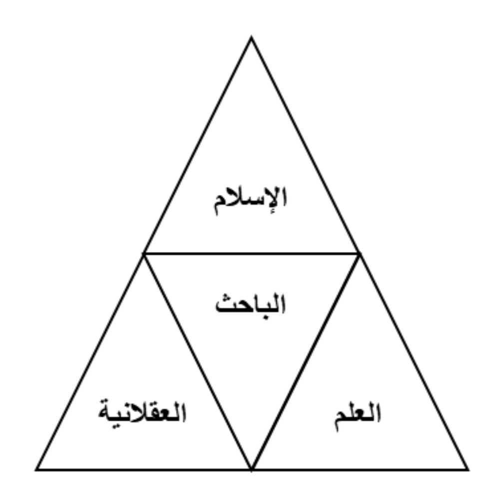
تبعا لما جرى في الغرب، زوِّجت الداروينية عندنا بالإسلام، وقبالة من استوفزهم هذا الخطب، وكربهم اقتران بنت الإلحاد، بدين الحقِّ، عجَّلَ الدراونة المسلمون في نطق خبيثتهم الشهادتين، وتداولوا بين المسلمين كل فاسد من تأويل، لا هو بالضالع إلى الداروينية الكاملة، ولا هو بالثاوي إلى حيز الإسلام، وخرجت ربيبة التبعية، وعقيلة الهزيمة النفسية: الداروينية المتأسلمة!

غير أن اللائمة لا تُلقى على كاهل الضعف النفسي وحده، فالحق الذي لا ريب فيه أن الخلل والعي متأصل في سنخِ منهج أولئك المؤسلِمين.

ولن يتضح ذلك إلا بتمثيل لبنية المنهج الإسلامي الحق، ثم مقارنته ببنية المنهج المُلفِّق المضطرب:

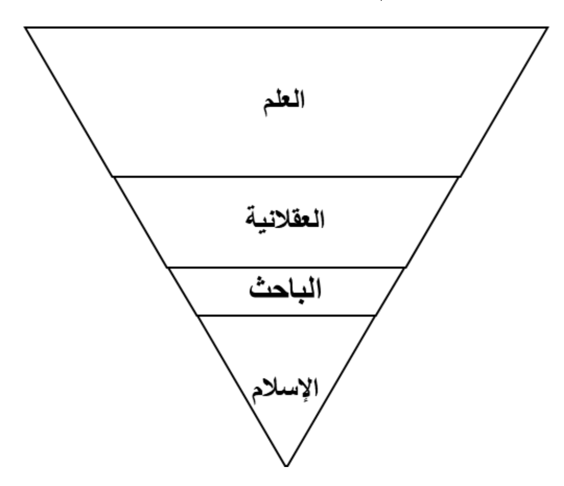
أ. بنية العلوم البحتة في الإسلام: هي بنية هرمية متينة، ترسخ فيها الشريعة فوق سرير السيادة، أعلى هرم المعرفة، ويجلس عند قدميها كلا من العقلانية / المنطقية، بالمفهوم الخاص بهذا البحث، والمعرفة العلمية البحتة. ويعيش الباحث في قلب هذا الهرم، مطمئنا إلى أن أرؤسه لا تتنافر، وأضلاعه لا تهتز، فالعلم الصحيح مُحال أن يناطح العقلانية، وكلاهما مُحال أن يتناقض مع الإسلام.

شكل 1. هرم المعرفة العلمية في الإسلام.



ب. بنية العلوم البحتة عند العلمويين المسلمين: أعاد أولئك تركيب تلك البنية، بقلبهم الهرم على رأسه، فصارت المعرفة العلمية البحتة في الأعلى، والعقلانية أسفل منها، ثم الباحث، وفي أخفض موضع بالبنية، أقعى الإسلام، ينوء بثقل الحمولة، وباضطرار الباحث إلى ضبط إياه دوما، وإلا اختل الارتكاز الضعيف لتلك البنية، وسقط الهرم كله، أو مال إلى غيره!

شكل 2. الهرم المنكوس للمعرفة العلمية عند العلمويين المسلمين.



أما الضبط الدائم الموكول إلى الباحث، فهو التأويل الجائر للقرآن، والشطط الغالي في ردِّ السنة، والتجرؤ السفيه على انتقاص القرون أولها وآخرها، بحجة أن السلف كافة قد أساؤوا الفهم، وقعدوا عن التجوُّل، واستناموا لخرف الإسرائيليات!

وسُلِبت سُلطة الوحي في تحديد انتماء النظريات العلمية والمعرفية وقياسها على مدراج الإمكان، وانقلبت أدلة الشرع الرواسِخ، إلى موائع قابلات للطي والتطويع، وانفلَّ نصيرُها، بينما فلجت سِفْلةُ النظريات العلموية، وأدال خسيسُها لُبابَ الشريعة.

ثم لم يُكتفى بذلك، بل سُلِّط على الشرع ومبناه - باسم المنطقية والعقلانية - وجوب موافقة العلموية، كل ما استحسنه غُفْلٌ من رأي، وإن رثَّ وسمُج.

واعتسف المؤوِّلون في ليِّ الأدلة القرآنية ونُكر السُّنن النبوية، وأغرى بهم الشيطان فأنزلوا بكتبهم غرائب التفاسير، وتكلَّفوا وجاروا حتى تعاور منطقهم، وكلَّت قرائحهم، فجهر أحدهم يوما، وهو الدكتور عمرو شريف، في رده عليَّ، بأنهم تاركو ما أعجزهم رده وتأويله إلى مُستقبلِ الأيام!

أينتظر جيلا آخر يكترع من السفسطة ما يعينه في إتمام مهمته هو ونظرائه؟!

وأذاع الدراونة المسلمون أن نظريتهم المُنتحلة، توافق أهدافا ثلاثة:

أولها: أنها تلائمُ بين العلم والإسلام، فهي أنفى لخَبَثِ تُهمةِ تناقض العلم والدين، ذاك أنها تلتزم قول علماء الطبيعيات وإجماعهم على صحة الداروني.

ثانيها: أنها تلتزم المنهج المعرفي الصحيح، ولا سبيل للجمع بين ربَّة العلوم البيولوجية، نظرية التطوُّر، ورأس الشريعة الإسلامية، إلا بهذا المنهج وحده.

ثالثها: أن ذاك الجمع أدعى لذيوع الملة، ونُصرة الدعوة، وفشوِّ الإيمان، فحينما يرى المتردد في اعتقاده أن أدلة الشريعة لا تُنافي قيلة الطبيعة، سيزول عنه كل ريب، ويقنعُ بالإسلام.

وقد جعلت فقار ذاك الفصل إبطال تلك المزاعم الثلاثة، فنبدأ بها واحدا تلو الآخر.

5. تفنيد المزاعم.

أولا. الزعم بإبطال الداروينية المتأسلمة التناقضَ بين مجتمع العلوم الطبيعية والإسلام.

يُجمع الدراونة المؤسلِمون على فرادة نظريتهم في تحقيق ذاك الهدف السمي، ويستمدون أصل شرعية خطابهم من ذاك الزعم خاصة.

غير أنهم يُدلِّسون في قولهم ذاك بما تدهم جرأته كلَّ مطلِّع على سياقات التطور في مهد نظريتهم المُنتحلَة، إذ أن التطوُّر الموجَّه، منبوذ مُحتقر في الأكاديميا الغربية، ولا يجرؤ المُفاخِرون بنظريتهم على إرشادك إلى مرجع هو عُمدة في العلوم البيولوجية بالغرب، ثم يُسلِّم بالتطوُّر الموجَّه! فهي نظرية يخشى المؤمنون بها إذاعتها، قلقا من تصرُّم حبال الود مع أقرانهم، ورهبة من حثو الأكاديميا التراب على مسيرتهم العلمية.

وسأحتاج إلى سرد موجز لقصة الأكاديميا العلموية الغربية، تعريفا لسبب ما هي فيه الآن:

هيمنت على أوروبا، خاصة في القرون الوسطى، إلى قرب نهاية عصر النهضة، المؤسسة الكنسية، وكانت هي راعية العلوم، ومثل قساوستها جمهرة الأساتذة والمدرسين والعلماء (5)، وفي هذه الأجواء، التي تربط العلم بالإيمان، نشأت الأكاديميا الغربية، وحظيت العديد من المدارس بقدر معقول من الحرية والاستقلالية عن الكنيسة، فتتصل بالبابا مباشرة حين تجابه إشكالا، والبابا يكون في

العادة أكثر لينا من الأساقفة المحليين. وجاء أول ذكر للجامعة، باسمها المعروف إلى الآن Universitas، على لسان بابا الكاثوليك إنوسنت الثالث، واشتهرت عدة مدارس للعلوم الطبيعية، مثل مدرسة شارتر، التي جرت فيها حينئذ أكبر المحاولات الأوروبية لتفسير الظواهر الطبيعية، كما اشتهرت مدارس مثل ونشستر باستقلاليتها المعتبرة عن أساقفة الكاثوليكية المحليين، وحريتها العلمية المرعية من البابا نفسه.

فالأكاديميا الغربية مثلت جزءا كبيرا من نشاط الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت الراعي الأوحد لتعليم اللغات والآداب والفنون والفلسفة والعلوم. وكان الشمامسة مثلا هم من يمتحنون الطلاب في الماجستير بكامبريدج، وهم من يمنحونهم الدرجة، بل إن كثيرا من الطقوس، كرداء الدرجة العلمية، والقبعة، وغير ذلك، هو ابن هذا العصر.

لكن مع ظهور عصر العلمانية، واستباحتها حوزة الكنيسة، ونهبها سلطان المعيارية في المجتمع بكافة أروقته، نشرت بين الناس تاريخا جديدا بديلا، عن الكنيسة المظلمة السوداء، التي كانت تضطهد العلوم، وتحرق العلماء، مستدلين ببعض الحالات المتفرقة، والوقائع الشهيرة، من أجل تعميم سردية تظهر فيها الكنيسة، والدين معها، غولا ذا أنياب، ينحر العلماء، ويُمجِّد في الناس الكهامةَ والعيَّ، فهذا هو ديدن تصريفه سائر أركان الدنيا!

ولا جرم أن المسلمين قد تأثروا بتلك الصورة في أعصر السلطان الغربي، سواء من جهة العلمانيين، الذين أذاعوا تلك السردية عن تاريخ الكنيسة، باعتبارها حقا تاريخيا مطلقا لا يُستراب منه، وقاعدة علمية لا ريب فيها، فقالوا بأن حاضرنا كماضي أوروبا، وأنها كما نهضت بالعلمانية، واستفاقت بحصار الدين، سنستقيم نحن إن

لزمنا فعالهم / أو الإسلاميين، الذين وافقوا على تلك الصورة عن الكنيسة الكاثوليكية، وأقروا الأساطير الذائعة حينها، فقالوا بأن العلمانية إن أصلحت الغرب، فلأن الكنيسة كانت بتلك الصورة القاهرة المخيفة، والظلام الموحش الكئيب، بينما نحن لنا دين مخالف، ونمط معرفي يمنع ذلك الصدام.

والحق أن كلا من العلمانيين العرب والإسلاميين أخطأوا بقبولهم الرواية العلمانية الشهيرة عن تاريخ الكنيسة والعلوم دون تمحيص، فالكنيسة لم تكن ملائكية، بل كانت جافة صارمة منغلقة في أحيان ومواقع، لكنها لم تكن شيطانا معاديا للعلم، بل كانت ترعاه وتسعى لنشره، وبُني على هذا الخطأ عدم الانتباه إلى أن جذور النظام الأكاديمي المعاصرة بعجره وبجره، بنشاطه وثرائه، مع جفاف قوانينه، وتزمت تقاليده، يمتد إلى عصر سيادة الكنيسة الكاثوليكية؛ بالتالي، فالأقرب للصدق أن النظام الأكاديمي الحالي، هو استبدال المعطف الكنسي الأسود، بالمعطف العلماني الأبيض!

فقط لم يعُد الشماس هو مانح الدرجة العلمية، ومستجلب اعتراف المجتمع العلمي بإجازة الممنوح = إنما الأستاذ العلماني، الذي فاق سلطانه ما كان للشمامسة، الذين كان يمكن للعالِم أن يتجاوزهم، كما في ونشستر، بل يتجاوز أساقفة بلده، مستظلا برعاية أكبر سلطة كنسية في العالم الغربي حينها: البابا، الذي، كما ذكرنا، يكون في الغالب أكثر تسامحا مع المكتشفات أو الأقوال العلمية الغربية ممن تحته!

لكن ما نهتم به هنا ليس نقاش أي النظامين أفضل، بل مناقشة ادعاء انفصال الأكاديميا العلمانية، والمعرفة العلمية في عهد قرون العلمانية، عن العصر الكنسي، وبنائها على نقيض ذلك النظام المعرفي والمنهجي.

فبينما باخ سلطان الكنيسة في الغرب، وتقلصت أذرعها لعوامل كثيرة، صعد الوريث العلماني، على تقاليدها هي ذاتها، وذاك لم يكُن في الأكاديميا العلمية فقط، بل حتى في السياسة والمجتمع، إذ أن القومية، حين التحقيق، هي إعادة تصوير للكنيسة الكاثوليكية، في دين علماني، وقد فصَّلت ذلك في كتاب هلال السيادة، فليُرجع إليه للتزوُّد.

وفهم ذلك مُوضِّح لسبب استمرار الخصائص الشمولية في العلموية العلمانية، وأخذها أدوات الدين المسيحي، في التعصب الشديد والمتطرف للطبيعة التي تبوأت عرش الإله، والعمل الدؤوب على كشف قوانينها التي حلَّت محل الشرائع، والعداء الشديد لكل معتنق لغيبي من أفكار أو معتقدات أو جماعات الذي حلَّ محل الحرب المقدسة ضد معتنقي الأفكار الكفرية والهرطقات!

وقد استمر عصر صعود العلموية العلمانية حتى الثلث الأول من القرن العشرين، وكانت ذروتها في القرن التاسع عشر تحديدا، إذ كانت البارادايمات مستقرة إلى حد كبير (6)، ومتناسقة مع أديان علمانية طبيعية، لا إله فيها، وتبقت فقط معضلة واحدة، هي تفسير تنوع الكائنات، وتركيبها البديع، والذي توهموا أن داروين قد أجابه ببراديم طبيعي خالص، أعلن فيه خلوص علم الأحياء من الغموض والثغرات، وشفاءه من أدران الأديان والغيبيات، ورتقه لرقع التشكيك في محاجة العلمويين بأن العلم لا يحتاج أبدا إلى دين. وقد استقر هذا البراديم الداروني إلى الآن مهيمنا على هذا العلم.

وبصيرورة العلوم كهانة جديدة، لا مجال للتشكيك فيها، ولا مكان للمرتابين بمنهجها، أو المترددين في منتوجها، أو الكافرين بنموذجها المنهجي = بدأت تظهر حركة جديدة منذ منتصف القرن العشرين، كرد فعل أولا على الوضعية المنطقية،

ثم على الحتمية العلمية والطغيان العلموي كافة فيما بعد، وكان من رموزها كارل بوبر وتوماس كون، وفي صورتها المتطرفة، فايرابند.

تشككت تلك الحركة العلمية في الوثوقية السائدة عند العلمويين الوضعيين، ودعاوى تمثيل النماذج المنهجية للقوانين الطبيعية بصورة حتمية، وإمكان الموضوعية المطلقة، والانفصال بين المعرفة الذاتية وتفسير الظاهرة العلمية، وناضلت من أجل أرخنة البراديمات، وكافحت من أجل إيجاد علم متعدد النظريات والمناهج، ووصف فايرابند تلك العلموية، التي سادت في القرون الأخيرة، بالطغيان، وشبهها بالكنيسة في الاستبداد وقمع المخالفين (7).

وقد ساعد على رواج تلك الآراء، المشاكل العديدة التي ظهرت للعلماء في النماذج التفسيرية التي تبنوها لقرون، سواء في الفيزياء، أو غيرها، وعمق الثغرات في البراديم التطوري، والتي اتسعت مواضعها كلما زادت الاكتشافات، لا العكس.

وقد انقسم العلماء مع نهاية القرن بين مدرستين في التطور أولاها كانت الوفية للبراديم الداروني مع تطويره، وهي المهيمنة بلا نزاع حول سيادتها، وأخرى ضئيلة وإن كانت تطورية، وقد حاولت رتق الثغرات الفاضحة باستعارة الإله من نظرية الخلق الخاص، وتنصيبه موجها للطبيعة، مرشدا للتطور.

وكما يُنظِّر كون، ينقسم العلماء في حال ظهور إرهاصات براديم جديد، بين قسمين، بغض النظر عن حجم كل قسم: الأول متعصب للتقاليد والأشكال والتفسيرات والمناهج التي يقدمها البراديم القديم، والثاني متطلع للجديد / وبالطبع سيكون أصحاب النموذج الثاني محل نُكران غليظ، وتوبيخ فظ من الأول (8).

لكن الحق، أن البارادیم الذي يقدمه أصحاب التطور الموجَّه، هو نفسه أعرج، فإن عالج جزءا في التطور، إلا أنه استبقى لنفسه كافة الثغرات الكبرى للنظرية، وسنتعرض لذلك لاحقا، حين نناقش محاولة مايكل بيهي لنصرة التطور الموجه.

لقد بقي إذن باراديم التطور العلموي (الطبيعي أو العشوائي) هو السيد، ورُفِض كل نموذج مخالف، ونُبِذ مع نظريات الخلق الخاص في أركان الساحة العلمية، وقد ظهرت علامات جلية لاشمئزاز المجتمع العلمي الغربي من التطوُّر الموجَّه تحديدا. وكما في التقليد الأكاديمي الكاثوليكي الجذور - كما تُقدِّم الرواية العلمانية - كان الاضطهاد واسع النطاق، وبدلا من الحرمان الكنسي من الجنة، صار الحرمان الأكاديمي من الدرجات أو الترقيات، وبدلا من الحرق للمهرطقين، صار تشويه السمعة والتضييق على المخالف أو حتى فصله من الأكاديميا.

وسأضع الآن بعض أقوال ممثلة لجمهرة المجتمع العلمي البيولوجي المعاصر، تأكيدا لأمرين، أولهما، أن هذا المجتمع هو تصوير حديث، مختلف العقوبات، أبيض المعطف، للكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى، سوداء العباءة، كما عرضها العلمانيون، لا كما كانت ضرورة.

وثانيهما، تعريف المسلمين بأن أولئك المؤسلمين للنظرية، يخدعونهم بالقول إن تبنيهم للتطور الموجه سيجلب لهم قبول المجتمع العلمي، وثنائه، وامتزاج العلم بالدين، دون نزاع.

1) فمن ذلك، وصف يوجيني سكوت، وهي المدير التنفيذي للمركز الوطني لتدريس العلوم في أمريكا NCSE، أطروحة التطور الموجَّه بأنها جدل ناجم عن الجهل؛ وشنها حربا ضد كل هؤلاء كي تمنعهم من اختراق مؤسساتها العلمية ما وسعها.

ويشاركها جلين برانش، نائب المدير في نفس المؤسسة، نفس التوصيف والاحتقار لهؤلاء الجهلة وله كتب معها لرفض تلك البدعة (10) (9)!

2) ومنه، وصف دوكنز، الداروني الملحد الأشهر، كافة منكري التطور من العلماء بالجملة الآتية: من الآمن تماما أنك إن قابلت منكرا للتطور أن تسميه شخصا جاهلا، غبيا أو مجنونا، وربما شريرا كذلك لكنني لا أفضل هذا (11)!

3) ومنه، وضع لجنة الثقافة والعلوم والتعليم في الاتحاد الأوروبي، مذكرة لمناقشة خطورة تسلل مفاهيم أي نظرية تعارض التطور الداروني؛ جاء فيها، أن: الخلقوية، لها جوانب متناقضة، والتصميم الذكي، الذي هو أحدث صورة منقحة من الخلقوية، لا يُنكِر درجة معينة من التطور، بل يحاول تقديم نفسه كنموذج علمي، وهنا يكمن الخطر!

وقد حذرت تلك المذكرة المجتمع الأوروبي من تسلل الخلقوية بصورها المتنوعة إلى التعليم، لأنها خطر على الديمقراطية وحقوق الإنسان! وحددت المسلمين والمسيحيين بشكل خاص كرعاة لهذه الخرافة لأنهم يقولون إن الداروينية ليست سوى نظرية تفسيرية فقط، غير مبرهنة بقوة (12)!

4) ومنه، توجيه مؤسسة التعليم والمهارات -التي كانت مسؤولة عن كافة مناهج التعليم العام في إنجلترا- بألا تُعلَّم أي نظرية تقول بالخلق، ولا التطور بالتصميم الذكي، في أي مناهج علمية مدرسية؛ إذ على واضعي المناهج الوطنية التوضيح الجلي للتلامذة بأن السجل الأحفوري، هو دليل على التطور(14) (13) .

5) ومنه، صدور حكم قضائي في الولايات المتحدة الأمريكية، يمنع تماما تعليم نظرية التصميم الذكي، وتأكيد القاضي في حيثيات حكمه أن هذا مخالف

لعلمانية الدولة، وأن تلك النظرية سليلة النظرية الخلقوية، وقد عُد هذا نصرا كبيرا للعلموية في أمريكا (16) (15)!

6) ومنه، ثورة المجتمع العلمي في الولايات المتحدة على بوش الابن، حينما أشار في لقاء غير رسمي إلى تفضيله إباحة تدريس التصميم الذكي بجوار الداروينية في المدارس، وقد أتت تلك الثورة ثمارها في وأد ذلك النقاش على المستوى الرسمي لعقد كامل على الأقل (17)!

واستقصاء مثل تلك الحوادث لا ينتهي، وخلاصتها تأييد قولنا إن المجتمع العلمي في تلك القضية له كنيسة علمانية خاصة لا يرحم من يُهرطِق بمخالفتها، وبالتالي يضع أثقالا فوق كتفي من يحاول شق طريقه بداخله وهو يحمل أي معتقد مخالف. وعليه يتجلى مقدار تدليس المؤسلمين العرب للداروينية حينما يقولون إن النظرية التي يقدمونها يحترمها المجتمع العلمي العالمي، وأنها كافية لرفع النزاع بين العلم والدين، بل وتجدهم ينظرون باستعلاء واحتقار لمن يقول بخلق الله المباشر للإنسان أو الكائنات واصفين إياه بالخلقوي، في احتقار ونبذ، بينما هم حاليا من أذل أهل الأرض بمعيار وواقع المجتمع العلمي الغربي، ولا يوصفون إلا بالخلقوية كما رأينا!

ثانيا: الزعم بأن قضية التطوُّر أرفع الأدلة على صحة منهج الدراونة المؤسلِمين وبطلان غيره.

وهذا الجزء هو الفلسفي أو المنهجي من القضية، وهو من بعض الأوجه أخطر من الزعم الأول، إذ أنه يؤسس لإفساد عشرات المعتقدات الرواسخ، في كافة الأفرع من الشريعة والإيمان.

وخلاصة منهجهم عرضناه قبل صفحات، وهو قلب الهرم، ليُصبح الشرع محكوما بالمعنى الذي يضفيه العلمويون على المكتشفات الحديثة، أي، بعبارة أخرى، تحويل البارادايم العلماني للعلوم، إلى سلطان معياري على الشرع، ودستوره الذي يُرجع إليه، فهو المُطالب أبدا بضبط نفسه كي يوافقه، وعلى أهل الشريعة أن يكونوا أُلّاف تعديل وتحوير لمعاني النصوص، أو حتى تعطيلها أو ردها، كي يسمح لهم سلطان العصر العلماني بالبقاء.

لكن ما هو النموذج المعرفي للمسلم من الأصل؟

يقول أهل السنة بمصدرين للمعرفة: الفطرة، والتجريب (18)، وبهذا النموذج لاستنباط المعارف، ينضبط الهرم الإسلامي المعتدل الذي عرضناه قبلا، حيث تتوافق المعرفة، أو المعاني العقلية، مع الشريعة، ومع العلوم التجريبية ومكتشفاتها.

ولنأخذ قضية مثل الدارونية، كي نعرضها على النموذجين، لنرى نتاج كل واحد منهما:

في الدارونية المتأسلمة، يؤدي المنهج إلى تأويل الآيات القرآنية، ورد الأحاديث، ونبذ التفاسير كافة، ورد الإجماعات الكبرى التي لا جدال في أنها كانت بين المسلمين كابرا عن كابر وصولا إلى النبي صلى الله عليه وسلم = لمجرد تعليق أو معنى علموي، مقول من عُبَّاد بارادايم إلحادي غربي، على مُكتشف حديث.

والسؤال هنا: ما الذي يمنع استخدام ذلك المنهج، في كافة أركان الإسلام وشرائعه؟ إن هذا المنهج لا يُستغرب من أتباعه – مثل د. عمرو شريف – أن يكونوا علمانيين،

هازئين بعلماء الشريعة الأجلاء، ساخرين من المحافظين على منهجهم المعاصرين باعتبارهم (سلفيين) مجرمين! إن لم يكونوا هكذا فهو جمع للتناقضات! إذ كيف تتخذ منهجا للعلوم، فيه كل تلك الجرأة على دين الله، وعلى شرائعه ونصوصه وأهله، ثم تقول إن استُخدِمَ في مجال آخر: لا! نحن نستخدمه في العلوم فقط!

ولنتحول الآن إلى المنهج الإسلامي في تعرضه لتلك القضية، والذي يستلزم منا معرفة أشراط ثلاثة أولية وعامة، ثم بعد ذلك جزئية تخصصية في التطور نفسه.

أما الأشراط الثلاثة العامة، فهي خاصة بضبط العلاقة بين الشريعة، والنوازل أو المستحدثات الفكرية والعلمية التي تؤثر عليها، أو تُجدد فيها، سواء بإضافة جديد، أو تصحيح معتقد شاع بين جمهرة علماء الشريعة قديما، وهي كالآتي:

1) شرط ثبوت تمام الانقطاع بين هذا المعتقد العلمي أو الفكري حين انتشاره في المتأخرين، أي العصرين الإسلاميين الوسيط والحديث، وبين العصر الأول بدءا من الصحابة إلى نهاية القرن الأول، أي عصر الصحابة والتابعين، أو وجوده بصورة طفيفة أو نادرة وشاذة لا يُستدلُّ بها على الثبوت الجماعي، كرأي صحابي واحد.

2) شرط عدم ثبوت الإجماع القولي، ووجود المخالفة ولو من عالم واحد معتبر مُجمع على فضله في الأمة.

3) شرط غياب نص قطعي الدلالة أو متواتر يدعم هذا المعتقد العلمي أو الفكري.

فهذه هي الأشراط الثلاثة الرئيسية لضبط تلك العلاقة.

والآن نأتي للجزئية التخصصية للتطور: يُقسِّم بعض العلماء التطور إلى نوعين، أولهما، هو التطور المُصغَّر Microevolution، وثانيهما هو التطور المُكبَّر Macroevolution.

أما الأول، فلا جدال في صحته عند كافة المشتغلين في العلوم البيولوجية، ولا خلاف عليه، إذ أنه مُشاهَد تجريبيا، فمثلا، أثناء إجرائي التجارب على بكتيريا الهالوفيل Halophiles بالدراسات العليا، والتي كنا قد عزلناها من وادي النطرون، لوحِظَ فقدانها العديد من خصائصها عبر الأجيال المتتالية، مثل اللون الأحمر، الذي صار بعد عدة أشهر من التجارب وردي اللون، ثم شفافا أو أبيض اللون في الأجيال المتقدمة. وكذلك أثناء إجرائي التجارب على فطر أسبرجليس تماري *Aspergillus tamarii*، لاحظنا أن فعاليته في تكسير مركبات الفينول تختلف بين الأجيال الأولى، المعزولة من الطبيعة، وبين الأجيال اللاحقة، التي أنتجناها معمليا، إذ أن الظروف البيئية ونمط التغذية وما إلى ذلك من عوامل خارجية، تؤثر بصورة واضحة في خصائص الكائنات الدقيقة. فهذا مما لا يُجادل في صحته أحد قد شم رائحة هذه العلوم، أو مارس بعضا من تلك الفنون، ولم أر مسلما عارضه / وإن كنت لا أستبعد أن يجادل فيه بعض الجهال بالأحياء، ممن يحسبون أن كل أحد متأهل للرد على الدارونية.

أما التطوُّر المُكبَّر، فهو الزعم بأن تلك التطورات الصُغرى، ما دامت قد أثبتت أنها تُغيِّر في خصائص الكائنات الحية، فهي بالتالي، وعلى مقياس ملايين السنوات، يمكن أن تنتج أنواعا جديدة متنوعة، بسبب ضغط العوامل الخارجية عليها. وبالتالي يُمكِن أن نجد إنسانا أصله من خلية بكتيرية، أو قرابة مع الأسماك، لاتصال الكائنين بأسلاف مشتركة في مرحلة تاريخية من ظهور الكائنات الحية.

فهذا الثاني هو الذي يدور حوله النزاع، ويشتجر عليه العلماء، إذ أنه يستند إلى مقدمات نُسلِّم بها، أي حدوث تطورات صغرى، بسبب الظروف الخارجية، وهي ملحوظة مع مرور مدة زمنية، ثم ينتقل إلى نتيجة مفادها أن ذلك يعني وجوب

التسليم بأن هذه الآلية تعني تنوع الكائنات الحية، وانحدارها من أسلاف مشتركة، وانتقال أنواع لأنواع أخرى، وذاك لا نُسلِّم به.

لِمَ لا نُسلِّم؟ هنا يتبدى المنهج الإسلامي واضحا، فنقول إن الرفض آت لسببين:

أولا: إثبات التجربة المتكررة اليقينية للأول، وعدم إثباتها للثاني، إذ أن إجراء تجربة عامل الزمن فيها هو مليون سنة، وضبط الظروف الخارجية لحالة طبيعية لا تدخل توجيهي من الإنسان فيها = هو من المُحالات. فالإيمان بالنوع الثاني، أي المُكبَّر، يلزمه تجربة، وهي مُحالة، ولا يصلح الاستدلال بالشاهد على الغائب، ولزوم لوازم الباراديم التفسيري التطوري، لا لامتناعه عقلا، فالعقل لا يُسلِّم ولا يرفُض بذاته دون تجريب واطراد موصل لليقين، إنما لامتناعه شرعا، وذلك هو السبب التالي.

ثانيا: أن الشريعة أثبتت أن الإنسان، على ألين التفسيرات، هو كائن لم يتطور أبدا من سلف، إنما خلقه الله سبحانه وتعالى خلقا خاصا منفردا، وقد اجتمعت الضوابط الثلاثة التي ذكرناها آنفا على منع مس ذلك الجانب، إذ أن كافة الأمة متفقة على ذلك، والنصوص فيه قطعية، والسنة فيه جلية، والقرون الأولى عليه مُتحلقة، فلم يحدث تطور في الإنسان جزما.

لكن، أيعني ذلك إمكان تطور الكائنات الأخرى؟ الرد من وجهين:

أولا: الوجه العلمي، وفيه أن تطور باقي الكائنات، بصورة انتقالية من كائن لآخر، لم يقُم عليه دليل تجريبي، لاستحالته كما أسلفنا، إنما هو تفسير مستنبط من الباراديم التطوري كما سنرى في الفصل الثاني.

ثانيا: الوجه الشرعي، وفيه أن تطورها، لم ينتهضُ دليل من الشريعة على نفيه بيقين، أو إثباته بيقين، وإن سُلِّم بإمكان ثبوته، إلا أنه يوجد شرط، غير متحقق في الداروينية، ألا وهو أن يكون هذا التطور مُقدَّرا، غير عشوائي.

فإن قيل: لكن هذا يعني أن الداروينية المتأسلمة ممكنة، فلم التشنيع؟ قلنا إن أنصار الداروينية المتأسلمة، مثل الدراونة الغربيين، تدور معركتهم حول تطور الإنسان تحديدا، فالبشر هم قلب العاصفة كلها، وهم يستدلون بإمكان الثاني، أي تطور الحيوانات، على عدم إحالة الأول، أي تطور الإنسان. ثم إنهم يتفقون مع الدراونة في أن البراديم حتمي، وأن الأدلة التي بأيدينا لا تفسير لها غير التطور. وسنبسط القول لاحقا في بيان هذر كل ذلك الاستدلال.

الآن لنُنظِّم القول:

لا يتعارض منهج الإسلام مع التطور المصغر، بل تسلم به كافة الأمم وتعرفه، فعلام كان التفاخر بأصالة الإبل والجياد، أو نُبل سلالتها؟ والتهجينُ فنٌّ مُمارَس منذ قديمِ الزمان، كما أن الكل يعلم باختلاف خصائص البشر الجسدية حسب البيئة التي يعيشون فيها، فهذا كله مما يعلمه أي إنسان، وتدركه كل أمة؛ لأنه ثابت بالتجريب منذ فجر التاريخ، ولم يكن ما نجده في المعامل حاليا مفاجأة علموية كما قد يحسب البعض.

أما التطور المُكبَّر، فهو من المُستحدثات، وغير ثابت بالتجريب، لإحالة إثباته كما أسلفنا، وهو من نوع قياس الغائب على الشاهد، أي قياس غيبي، فيُرجع في حكومته إلى العالم الأوحد بالغيب، الله سبحانه وتعالى، وقد وجدنا أن شرعته تجزم بنفي حدوثه في الإنسان، ولا تقطع بعدمه فيما عداه، غير أنها تؤكِّد الحكمة والتدبير وعدم العبث في جميع خلقه. والعلمويون يرفضون التسليم بأن قياسهم هذا غيبي، إلا أنهم ينسبون ما لا نراه، إلى الطبيعة!

إذن أي منهج أصلح، وأوفق للعلم والدين معا؟ منهج يطلب الدليل التجريبي المُشاهَد والمُطَّرِد، ويرفض حكومة الغيب الطبيعية، مسلما إياها لله سبحانه وتعالى، أم منهج

يسلم الحكومة إلى الطبيعة، أو - إن شئت الدقة - تفسيرات العلمويين والملاحدة للطبيعة وعملها، وهو مع ذلك يُكابر ويقول لا يوجد أي جزء ميتافيزيقي في عملنا، ولا غيب في فلسفتنا!

نخلُص من كل ذلك، أن قضية التطور، على النقيض من دعاوى مؤسلمي النظرية، هي أسمى القضايا إثباتا لجلال المنهج الإسلامي، وعدم وقوعه في تناقضات، وإجلاله للتجربة، مقارنة بمنهجهم الأعوج، الذي لا هو نصر شرعة محمد عليه الصلاة والسلام، ولا هو لزم قوانين داروين! وقد بان عوار ذلك المنهج جليا في النقاشات الجارية مع د. عمرو شريف، إذ أنه قد قال مثلا، في صفحته على موقع التواصل، ردا على كتابي: (علينا قبول مفهوم التطوُّر الموجَّه حتى وإن عجزنا عن تأويل بعض آيات القرآن الكريم؛ فهذه مهمة قد تستغرق عشرات السنين وربما أكثر)! لماذا؟ لأن (مفهوم التطور عليه شبه إجماع في الأوساط العلمية) كما يقول! ثم يزداد جرأة، ويتوغل في غيه، فيقول: علينا (الفصل بين كلمة الدين وكلمة العلم، فيصبح ما لله لله، وما لقيصر لقيصر)!

وقد أوشكت أن أسجد لله شكرا حينما علَّق بهذا على الطبعة الأولى من كتابي في تعليق مع مريديه، إذ أنه نقل شكوكي التي ذكرتها حينها، إلى موطن اليقين، وأكد للقراء أن منهج أولئك المؤسلمين علماني، أو هو مؤدّ حتما إلى العلمانية، ولك الحكم في شخص يعجز حتى عن تأويل الآيات، لكن المهم عنده أن تُعطَّل إن عارضت (شبه إجماع) من العلماء على مسألة، إلى أن يأتي الحاذق في التحريف، الأحوذي في العبث، الخريت في التأويل، كي يلوي لنا النص، ويبدل دلالته المستقرة في الأمة، لموافقة الإمام داروين (عليه السلام)!

ثالثا: الزعم بأن نظرية الداروينية المتأسلمة أجمعُ لشعثِ المُرتابين، وأدعى لأوبة الملحدين.

هذا هو الزعم الثالث، ولعل القارئ الآن لم يعد يحتاج إلى كثير كلام لدرك خطل القائلين بهذا.

فالملحد الذي تدعوه للإسلام بآلة الداروينية المتأسلمة، ستتكل على جهله بتفاصيل القضية والخلاف حولها، كي تبيعه وهم انتصار داروينيتك المُحرَّفة للمجتمع العلمي، واعتراف العلماء بها = إذ أنه لو كان عالِما بالحقيقة، فسيصبح نارا محرقة عليك، كاشفا كذبك وتدليسك في مقالتك أن ما تبيعه مُحترمٌ في أوساط العلوم!

فأنت – حقيقة – تُرسِّخُ يقينَ عالِمِ الملحدين بصحة الكفر، وتؤكد له أنك تاجرُ دين، أفاق، لا تمانع الخداع وادعاء موافقة العلم من أجل نصرة ملتك!

لكن، هب أنه رضي بهذا الوهم، وصار مؤيِّدا للإسلام؛ فأي دين هذا الذي تدعوه إليه؟ أتأملُ منه خيرا بعدما سفَّهت المتشرعين، وعطلت النصوص، وحرفت المعاني، وأغضيت من السنة، وذممت المنهج الحق؟!

أي دين يدخله الملحد، أو يثبت عند المرتاب، عندما تدربه على تسليم الغيب لعلماء الطبيعة، وتحقير كل من سلَّمه لله، وترك النص على ظاهره، دون تأويل أحمق، نصرة لمنهج أخرق؟!

وما مآل ذاك المتدرب، عندما يدخل الإسلام وقد اعتاد كل هذا التحريف، نصرة لقول جماعة علمية في أوروبا أو أمريكا؟! فماذا لو أراد نصرة (حقوق الإنسان) هي الأخرى، وقال بضرورة التحريف لنصرة جماعات حقوق اللوطيين؟! حينما كتبت هذا في الطبعة الأولى، رآها البعض مبالغة، وها نحن نرى ذلك الآن عيانا، وفي كتاب دين المؤتفكات البسط في تبيين ذلك فوق الكفاية!

إن طرح الدارونية المتأسلمة، لا يُنميه إلا الجهل بالقضية، لا العلم بها، ولا يُشكِّكُ المُلحِد إلا في أمانة علماء المسلمين، ولا ينقل المرتاب إلا إلى اليقين في عدم توافق الإسلام والعلم!

فهذا هو تمام القول في قضيتي النموذج والمنهج.

الفصل الثاني: النماذج التفسيرية التطورية، وتوظيف تطبيقاتها في خدمة الدارونية المتأسلمة

تمهيد.

دار نقاش الفصل الأول كله حول النموذج من حيث سياقاته الكبرى التي ألجأت إليه العلماء؛ وسيدور مطلع هذا الفصل حول التطبيقات النموذجية والمنهجية له في أفرع علوم الأحياء، إذ أن البارادايم النظري، يُنزَّل في إطار عملي، والدارونية لها العديد من الأطر العملية، من أبرزها اتصالا هو علم السلالات (الفيلوجيني) Phylogeny، وعلم الحفريات الإنسانية (الباليو أنثروبولوجي) Paleoanthropology، وسيعرض لهما هذا الفصل، ثم نختم بتوظيفات تلك النماذج في خدمة الدارونية المتأسلمة.

وغرضُ هذا الفصل تبديد وهم أن الداروينية بكونها النواة الصلبة للعلوم البيولوجية قد دفعت تطورها ونظَّمَت تقدُّمها، وسيظهر هذا جليّا من استعراض تاريخ الفيلوجيني، ثم تبديد وهم رسوخ علم الحفريات المزعوم أنها إنسانية، وستكون تلك مهمة استعراض الباليو أنثروبولوجي. فإذا علم القارئ حجم الفوضى وعاين مدى التخريب وشهِدَ سرديات الوهم والخيال = بان له وهاء الاتكال على الداروينية من الأصل، وسفاه التعامل معها كحقيقة علمية لا ريب فيها.

القسم الأول – النموذج الفيلوجيني

1. موجز تاريخ الفيلوجيني.

الفيلوجيني هو أحد أهم البارادايمات التطبيقية للتطور، وهو فقار قضايا إثبات العلاقة بين الكائنات، وعليه يحسُن تقديمه في العرضه قبل غيره.

لكن لابد في البداية من التفرقة بين مصطلحات ثلاثة، تُستخدم أحيانا بصورة مترادفة، مع وجود فوارق دقيقة ظاهرا بينها، أولهما وثانيهما يعنيان محض التصنيف، وهما التاكسونومي Taxonomy والسستماتيك Systematic والثالث هو الفيلوجينيتك Phylogenetics.

والفارق بين الأول والثاني – وإن كانت العديد من الأدبيات تستخدمهما بصورة مترادفة – هو أن التاكسونومي يعني ثلاثة عمليات: اختيار اسم لكل صنف مكتشف

من الأصناف الجديدة Nomenclature، ثم وضع الكائن بداخل ترتيب تصنيفي مناسب له Classification، ومنهج التعرف على هذه الأصناف.

بينما السستماتيك هو إضافة الإطار التطوري للتاكسونومي، أي:

السستماتيك = نظرية التطور + التاكسونومي.

أما الأخير، الفيلوجنتيك، فهو سستماتيك موظَّفٌ في خدمة هدف رئيسي: معرفة تاريخ تطور الكائنات.

فالسستماتيك والتاكسونومي قد يشتركان في الهدف - وإن كان التاكسونومي هو الأقدم ألا وهو تصنيف الكائنات - غير أن أحدهما مجرد اهتمام محض بترتيبها، بينما الثاني، هو اهتمام بتنضيدها في ضوء نظرية التطور، لكن المهم والهدف هو ترتيبها وتصنيفها، أما الفيلوجيني فالمهم عنده هو فهم وإدراك سبب صورة الترتيب والعلاقات بين ذوي المراتب بعضهم البعض(19) .

وعليه نفهم سبب استخدام التاكسو والسستم بصورة مترادفة، فالتصنيف منذ ظهور نظرية التطور وهو يتحرك في ضوء البارادايم الخاص بها، بالتالي فإن كان التاكسو هو العام، فقد خُصص منذ زمن بالسستم وصار بينهما ترادف.

ويحسن بنا فهم هذا العلم، من خلال عرض تاريخ تحوله من محض التاكسونومي الصلب والمُنظَّم، إلى الفيلوجيني السائل والفوضوي.

1.1. عصر ما قبل الداروينية: تصنيف لينايوس.

في منتصف القرن الثامن عشر، وضع عالم النباتات السويدي كارلوس لينايوس كتابه Systema Naturae وفيه وصف أكثر من عشرة آلاف نوع Species وصنفهم في ممالك ثلاثة كبرى[4]، وقد كان عمل لينايوس فتحا كبيرا للتنظيم في علم التصنيف، وإليه ترجع مثلا بعض أهم قواعده، وأبسطها التسمية الثنائية للنوع باللاتينية. وقد كانت وجهة النظر السائدة حينها، وبها آمن لينايوس، أن الكائنات كافة مخلوقة من الله، وقد يحدُث تحور طفيف بداخل الكائن عبر السنين، إلا أنه يتكون من جوهر معين محدد، لا يمكن أن يتغير إلى جوهر آخر متمايز عنه، وكان لينايوس يرى في هذا التنوع دليلا على عظمة الخالق (20).

نُلاحِظ الآتي في تلك المرحلة:

1. أن علم التصنيف بصورته الأولية البديعة ظهر في عصر يؤمن بالخلق الخاص، وعلى يد رجل مؤمن بالله، وبفرادة المخلوقات، وبالتالي كانت الشجرة حينئذ متينة الجذور، واضحة الفروع.

2. أن التصنيف كان يعتمد بصورة رئيسية على الشكل الخارجي Morphology، وقد كان ناجحا بتلك الصورة، وهو الأساس الذي نهض به علم الأحياء / وإن كان

---

4 التقليد في التاكسونومي والذي سيتطور بعد لينايوس، أن الطبيعة مكونة من الترتيب الهرمي الآتي في تنويع المخلوقات:
النطاق Domain، والمملكة Kingdom، والشعبة Phylum، والصف Class، والرتبة Order، والعائلة Family، والجنس Genus، ثم النوع Species / فالأسد مثلا من نطاق اليوكاريا (عديدة الخلايا)، ومملكة الحيوان Animalia، وشعبة الحبليات Chordata، ورتبة المفترسات Carnivora، وعائلة السنوريات Fellidae، وجنس بانثيرا Panthera، ونوعه: Panthera leo.

من الحمق طبعا نسبة هذه المعيارية إلى لينايوس، فمنذ بدء التاريخ والتفرقة بين الحيوان والنبات مثلا من البدهيات عند كافة الأمم.

2.1. عصر ظهور الداورنية: شجرة الحياة الساذجة.

مع بداية عصر الدارونية، استغل داروين التاكسونومي من أجل إعادة ترتيب الكائنات بحسب القرابة المفترضة، والانتساب إلى سلف مشترك كلي، فللمرة الأولى في تاريخ العلم الحديث تظهر رؤية تجمع كافة المؤتلفات مظهريا مجموعة تلو الأخرى، من أجل الوصول إلى جذر كلي جامع.

وسيكون التطور الأكبر في عصر داروين وبعده، على يد إرنست هيكِل E. Haeckel، الألماني الذي كان من أبرز المروجين لنظرية داروين في ألمانيا، وسيبدأ التصنيف مرة أخرى على ضوء النظرية الدارونية، فالحشرات مثلا سيصنفها بحسب طريقة أكلها (20)، وهكذا.

على يد هيكِل ظهرت العديد من النظريات المستمدة من الرؤى الدارونية، ربما كان من أشدها تأثيرا في الثقافة العامة نظرية المحاكاة التطورية للجنين Recapitualtion theory أو قوانين البيوجيني، والتي أُسِّسَتْ عليها المناهج التعليمية والتربوية في الغرب قبل الحرب العالمية الأولى، ومختصرها البسيط أن تطور الكائن مُمثل في الأجنة، فالجنين الإنساني مثلا يقترب في أثناء تكوُّنه من الأسلاف الحيوانية القديمة، ولكنه يستمر في التطور حتى يصل إلى النموذج المثالي الإنساني الكامل، وقد تسببت هذه النظرية في الإيمان العنيد بالعنصرية البيضاء، وأن الإنسان الأبيض أعلى نماذج الكمال البشري الطبيعي، وأن الأجناس الأخرى، مثلنا،

ليست سوى مراحل مُعاقة ومعيبة من التطور، لأننا أقرب للقِردة، بالتالي فالثقافات نفسها هي مراحل ذات ترتيب هرمي طبيعي صلب لا فكاك من الاعتراف به علميا، وهو أن الغرب الأبيض أعلاه، والعالم الأسود أدناه، وقد آمن بهذه النظرية كبار العلماء الأوروبيين في نهاية القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، وكانت المناهج التعليمية توضع لتوضيح هذه الحقيقة العلمية الراسخة، وزرع الإيمان في الغربي بأن عليه واجبا تجاه تلك الأمم المُعاقة الأخرى (21). في وقت لاحق ثبت أن هذه النظرية خرافة، وانتقلت إلى قائمة النظريات المهجورة، والعلوم الخاطئة، لكن رؤية آثارها الممتدة إلى حاضرنا لا يحتاج إلى بيان!

لكن أهم ما صنعه هيكِل، هو وضعه حجر الأساس لعلم الفيلوجنتيك، أو للدقة: فن الفيلوجيني / وفيه سيبدأ إعادة وضع قواعد التصنيف، لتلائم التطور، بل وجعل البحث عن التاريخ التطوري للكائنات هو أجلّ أهداف دراسة الكائنات وتصنيفها. وسيضع شجرة للحياة، بسيطة التركيب، على غرار شجرة لينايوس، لكن مع جعلها ملائمة للباراديم التطوري، فالكائنات لم تعد توضع في التصنيف بحسب الهيئة الخارجية فقط، إنما بحسب القرابة المحتملة كذلك، وبصورة تدريجية من الأعقد إلى الأبسط، محاولة لملاقاة كافة أفرع الشجرة في جذور قليلة ثم جذر واحد أصيل.

وإلى منتصف القرن العشرين، كان الفيلوجيني مُعابا بأنه رؤى فلسفية وذاتية أكثر منه علم، ثم كانت المدرسة الأكبر في الفيلوجيني هي الفِنتيكية Pheneticist وفيها تُجمع الكائنات الحية وتُصنَّف بحسب التشابه المظهري الكلي Phenotypes، فإن أشبهَ كائنٌ كائنا آخر في ثلاثين مظهر خارجي (فينوتايب)، سيكون حينئذ أقرب له من كائن يشابهه في 20 فينوتايب، وكان هذا - باعتماد تلك

المدرسة على الأرقام، وما يسمى بالتجميع الفينتيكي Phenetic clustering - يعتبر أقرب المناهج إلى الانضباط العلمي. غير أن النتائج غلب عليها ظهور العيوب، وكان واضحا أن التشابه في الفينوتايب لا يكفي للحكم بالقرابة، أو فهم كيفية التطوُّر، فكانت طريقة الفنتيكيين، برغم منطقيتها وسهولتها، غير صالحة في التطبيق الواقعي (19).

يمكننا أن نؤرخ - منذ هذه اللحظة - بداية نهاية البارادايم الفيزيقي المحض، أو الاعتماد على الشكل الخارجي (المورفولوجي) والسمات المادية الظاهرة لتصنيف الكائنات، فالنموذج التطوري كان يواجه مصاعب جمة في الالتحام مع النموذج التصنيفي، كأنك تحاول وضع شجرة سنديان ضخمة، لا يُعرف لها رأس من قدم بسبب كثافتها، بداخل صندوق أنيق مصمم على شكل صليب!

3.1. عصر معيار هانيج: الفيلوجيني يصبح علما / الأشجار العشرة.

في منتصف القرن ظهر في حقل التصنيف والفيلوجيني اسم بارز، هو عالم الأحياء الألماني ويلي هنيج W. Hennig، ومعه سيبدأ الفيلوجيني في الحقبة النهائية للنموذج المادي الظاهري (البارادايم الفيزيقي) - لكنها مع ذلك الحقبة الأهم على الإطلاق، إذ أن أكثر مصطلحات الفيلوجيني وطرائقه ستظهر فيها - وتمتد إلى نهاية الثمانينيات.

وقد هذَّب هنيج الأفكار الفنتيكية، وعارض التجميع الكلي للصفات، ورأى أن الأصوب تصنيف الكائنات في شجرة فيلوجينية توضِّح مراحل تطور الكائن بأن تُحدد الصفات الأبرز المنتسبة إلى آخر الأسلاف المشتركة بين الكائنين، لا جملة الصفات.

لنوضِّح ما اقترحه هنيج:

إذا افترضنا أن لدينا أنواعا خمسة من الكائنات، فإن الصفة الأبرز التي تجمعهم معا في مجموعة واحدة متجانسة Monophyletic group هي التي توجد فيهم وفي سلفهم المشترك معا، هذه الصفة تسمى Synamorphy وهي تنقسم إلى نوعين: صفة مشتركة موروثة توجد في مجموعة الكائنات الخمسة Apomorphous، وصفة مورَّثة توجد في السلف المشترك Plesiomorphous. وبذلك نستطيع حزم كل مجموعة لدينا في تصنيف واحد، مرتبط بمجموعة تطورية سالفة له، هكذا صعودا إلى الأسلاف العُليا.

إذن نحن أمام نظام جديد، سُمي أنصاره بالكلاديين Cladist، لا يكتفي بمجرد مجموع الصفات المتماثلة، بل يربط بين السلف والخلف معا في الصفات، فبتعيين الصفة الموروثة من السلف، وتحديد الكائنات التي ورثتها، يمكننا أن نصفها بأنها مجموعة متجانسة، متطورة من سلف واحد.

وقد انتشر هذا النظام وراج وصار أحد أهم التطورات في تاريخ هذا العلم، إذ صارت الأشجار أكثر منطقية من الناحية التطورية مقارنة بأشجار الفنتيكيين؛ لكن سرعان ما ظهرت المشاكل الآتية:

1. لم يحزُ هذا النظام على الإجماع، وبالتالي صار التشجير مُشكِلا، فأشجار الكلادية مختلفة عن أشجار التطور الفنتيكية = فالكائن س إذا اشترك مع الكائن ص في 20 صفة، ولكنه اشترك مع الكائن ع في 10 صفات فقط، لكن بينهم صفة واحدة سينامورف، فسيُصنف مع ع باعتباره أقرب له من الكائن ص بحسب الكلاديين، بينما

هو مع الكائن ص حتما بحسب الفنتيكيين! وقد انعكس هذا على المجلات العلمية، فبعضها كان كلاديا، يرفض أوراق وآراء الآخرين، والعكس بالعكس! لكن على أي حال يمكن القول أن نظام هانيج كان هو الأكثر شعبية إلى نهاية تلك الحقبة.

2. ظهر عائق ضخم جدا في نتائج الكلاديين، كثيرا ما أفسد النتائج وأظهرها سطحية، وهو ما يُعرف بالهوموبلاسي Homoplasy وهي حالة للخصيصة المدروسة، حيث تظهر وتختفي خلال الشجرة المصنوعة، ويكون ذلك بسبب إعادة اختفاء الخصيصة المكتسبة، فهي معدومة في السلف، ثم ظاهرة في الخلف، ثم معدومة مرة أخرى في الكائنات الأقرب، خلف الخلف، بل قد يحدث كذلك من تطور الخصيصة نفسها عدة مرات في خلال السلسلة، فلا يُعرف أيهما أسبق، وهل هذا يعني أن الكائنات المكوِّنة للمجموعة تصلح بالفعل كمجموعة تصنيفية Taxa أم لا.

وقد ظهرت محاولة للتغلب على ذلك العائق، بمنهج البارسيموني Parsimony ويعني تفضيل أبسط التفاسير في شجرة التطور، وعدم الوقوع في فخ التعمق في فهم التعقيد الذي يسببه الهوموبلاسي، فأقل احتمالات تحوُّل الخاصية هي التي سيناصرها العلماء (20)؛ لكن مع توالي المكتشفات وظهور الفجوات الضخمة، بان عجز البارسيموني السطحي عن تفسير الأشجار، وتعقيد الحياة، وبدأ المنهج يتحول إلى مناهج، ووصل حقل التصنيف والفيلوجيني في منتصف الثمانينيات إلى ما عبر عنه فيتش في عام 1984 بقوله: إن حقل التصنيف في فوضى ضخمة (considerable turmoil)؛ إذ أصبحت مجموعات الباحثين تستخدم طرائق

مختلفة للتصنيف وتُجادل بأحقيتها، وأنا أضمن لك أنه لا توجد طريقة واحدة تجمع الحق كله (19)!

إن شجرة الحياة لم تعُد مشاكلها تقتصر على التعقيد والفوضوية، بل خرجت لنا مشكلة أكبر وهي (تعدُّد) أشجار للحياة، وتنازع كل منها مع الآخرين القرب من الصحة العلمية!

بذا وصل الاعتماد المحض على الصفات الفيزيقية إلى نهاية هيمنته على المشهد، وسط فوضى عارمة وغابة صغيرة لكن عشوائية؛ تحتاج إلى يد تُحدِّد الشجرة الجامعة لكافة المتنازعين والمتصارعين، وتجتث كل ما عداها.

وفي الأفق ظهر ضوء عصر جديد، نُظِر إليه بأمل رومانسي: عصر الجينوم والبيولوجيا الجزيئية، التي ستدخل لتحسم الأمور كافة. سنلج أعماق الخلايا، وجوهر المخلوقات، ولن يكون للخلافات الفيزيقية معنى.

4.1. عصر البيولوجيا الجزيئية: الألف شجرة.

يتلخص المبدأ الرئيسي لاستخدام البيولوجيا الجزيئية وتحليل الجينات، في المقارنة بين الأنواع المختلفة، والبحث عن التماثلات بين التصنيفات Likelihood (20)على المستوى الجزيئي، سواء في الرنا، أو دنا الميتوكوندريا، أو لاحقا في الجينوم نفسه.

الافتراض المبدأي الذي كان يدعو للتفاؤل: أن ضم الصفات المظهرية Phenotype والصفات الجينية Genotype سيُفضي إلى صناعة شجرة واضحة النسبة بين عناصرها ومخلوقاتها، تمكننا من فهم الأسلاف والأخلاف،

وبإضافة برامج الكمبيوتر المتطورة، ستصير عملية إيجاد القرابة أيسر ألف مرة من العمل اليدوي السابق في الفيلوجيني، الذي غلبت عليه الأهواء والنزعات والمدارس المختلفة.

لكن مع مرور الوقت، ومع نهاية التسعينيات، ظهر بجلاء أن هذا الافتراض وهم كبير، إذ تجلت العديد من العوائق والعقبات التي جعلت التحليل الجزيئي يُضيف إلى الشقاقات مدرسة جديدة، لتصبح الغابة الصغيرة، غابة أكثر ضخامة!

ويمكن تلخيص العقبات الجزئية والكلية عامة في الآتي:

1. ثبت أن اختيار جينات مختلفة من نفس المجموعة من الكائنات، وتحليل كل منها على حدة، يُنتِجُ أشجارا مختلفة وتصنيفات متنافرة، وبالتالي يمكن أن ينتمي الكائن الواحد بحسب الجين المدروس والموروث من سلف مشترك مفترض، إلى عدة ممالك مثلا؛ ولا أكثر من هذا صناعة للاضطراب وقلعا لشجرة الحياة من جذورها (22)!

تصور أن تجد كائنا لا ينتمي فقط إلى عدة عائلات مختلفة، بل إلى مملكتين مختلفتين من ممالك تصنيف الكائنات! وقد اقترح بعض الباحثين أن تكون المقارنة بين مجموعات جينية كاملة لا مجرد جينات قليلة، من أجل تحسين النتائج، لكن هذا لم يُنهِ أبدا التشوش الفيلوجيني Phylogenetic Inconurency واضطراب النتائج وعدم تماسك الأشجار المستنبطة (23).

2. العجز الفاضح للبيولوجيا الجزيئية في حل بعض أبسط مبادئ التأريخ التطوري، فعلى سبيل المثال: لم يستطع التحليل الجزيئي لأحد أبسط المخلوقات عديدة

الخلايا، وهو الإسفنج، حل معضلة قاعدة الشجرة الميتازوية Metazoan tree، أي أن العلماء عجزوا عن فهم كيف تحولت الكائنات وحيدة الخلية، إلى كائنات متعددة الخلايا، ولم يُضِف التحليل الجزيئي شيئا يُذكر في هذه القضية، فنمط النمو في كلا النطاقين مختلف تمام الاختلاف، لذا، برغم التفاؤل في المستقبل، لم يجد الباحثون بدا من إعلان أن البحث الجيني والتحليل الجزيئي لم يحركهم للأمام، وعلى الباحث الحذر أصلا في إعلان النتائج لأن المسألة معقدة وصعبة (24).

3. الخلافات الضخمة التي أحدثها إنتاج نفس قاعدة البيانات الجينية لنتائج مختلفة ومتضاربة بين البرامج والأساليب والمناهج المستخدمة في تحليلها؛ بالتالي لم يعُد التحليل الجيني لنوع ما، وإعلان نتائجه ونشر قاعدة بيانات الجينوم الخاص به، يعني أبدا اتفاق العلماء على تصنيفه الفيلولوجي، أو تنوع طرائق الاستنباط المستخدمة وبالتالي تنوع الأشجار (25).

4. الانفصال بين الظواهر الفسيولوجية والتركيب الجيني للعديد من الكائنات، ومثالها الأكبر الميكروبات، إذ أن ظاهرة الانتقال الجانبي للجينات LGT بينها منتشر وذائع، وبالتالي يمكن أن تجد في بدائيات النواة (البروكاريوت) انفصالا واضحا بين المكوِّن الجيني (الجينوتايب) والمنتوج الفسيولوجي أو الظاهري (الفينوتايب) = وقد تسبب هذا في انفصال شجرة التصنيف الفسيولوجي في كثير من الأحيان عن شجرة التصنيف الفيلوجيني للرنا في تلك البدائيات(26) .

5. الفشل الواضح لعلوم الجينات في حل الكثير من المعضلات الفيلوجينية في علم الحشرات، مثل العجز عن إيجاد حل لمعضلة الأصل الفيلوجيني التطوري لرؤوس اليعاسيب وذباب مايو، أي ذوات الأجنحة القاعدية Basal winged، وعدم

الاتفاق العلمي إلى الآن على أي نتيجة مثمرة فارقة صنعها استخدام قواعد البيانات، برغم المحاولات الجاهدة للسعي في إصدار نتائج بطرائق مختلفة (27).

6. جمهرة الطرائق الفيلوجينية PSC تسببت في أن كل مجموعة من المخلوقات بينها تغيرات ولو طفيفة عن المجاميع الأخرى، صُنِّفت باعتبارها نوعا مميزا مختلفا، وبالتالي هيجت انتقادات واسعة من المعسكرات المتنازعة، إضافة أنه من المنتشر في الطبيعة أن يُعتبر أحد الأنواع خارج مجموعة تطورية لأنه مختلف في المسار التطوري، بالرغم من أنه في الحقيقية ينتمي إليها، لكن مع الفحص بهذه الطرائق، يُستبعد خطأ، وبالتالي يؤثر على تماسك الشجرة أو عدم جريان الانتقادات عليها (28)، إضافة طبعا لكون كافة الأنواع هي في الحقيقة فرضيات وليست حقائق مطلقة متفق عليها، بل إلى الآن لم يتوقف الخلاف حول تحديد ماهية النوع Species أصلا، وهذه الخلافات تؤثر على نظريات العلماء ورؤاهم وبالتالي توجهاتهم البحثية بصورة واضحة (29).

لكل تلك الأسباب، وما هو أكثر من ذلك من سقطات لا حصر لها، وخلافات بلا نهاية، لم يُحقق علم البيولوجيا الجزيئية الآمال، بل زاد الإحباطات ورسَخَ لدى العلماء أن التفاؤل الحذر هو أقصى مأمول، ومع ذلك لا يُمكِن إنكار اعتماد العلماء عليه بصورة كاملة، إذ أنه عامل مساعد في دعم حجاجهم ضد بعضهم البعض في التصنيفات وخلافات علم الفيلولوجيا التي لا تنتهي.

ولا ريب قد أفاضت البيولوجيا الجزيئية في توليد الزارعين، وأكثرت من البذر والحرث، فأحلكت غابة كان يجب ألا تزيد أشجارها عن واحدة فريدة، فضلَّ السعيُّ إلى شجرة الحياة بين ألف شجرة مُقترحة!

2. الغابة المسحورة، الفيلوجيني كدعامة للتطور.

إن لم يكن ما صنعه النموذج التطوري في التاكسونومي هو الإفساد بعينه، بالانتقال من اليسر والإجماع إلى الاختلاف والتشرذم؛ ومن الاهتمام بالكائن إلى الانشغال بما وراء الكائن من فلسفة، فليس للتخريب والإفساد معنى!

لقد تحول الفيلوجيني إلى غابة مسحورة، لا يمكن للمرء أن يخرج منها، فإن اعتُبِر أنه دعم التطور، فقد خرب كل ما عداه، هذا إذا اعتبرنا أن ما وصلنا إليه من الاضطراب والخلافات والشقاقات حول معنى النوع أصلا ما بالك بتصنيف الكائنات، هو دعم للتطور!

ولعل لينايوس لو بُعِث اليوم، ووجد كافة تلك الأدوات في أيدينا، ثم علم أن الناس يصنعون مع بعضهم كل هذا، ويخربون في الأشجار كل هذا التخريب، لمات كمدا تلك المرة!

ويمكن تعيين أهم ملحوظات مواطن الإفساد الفيلوجيني في الآتي:

2. 1. الخلاف الدقيق بين مدرستي الظاهرية (الفينوتايب، المورفولوجي، الفسيولوجي) والجزيئية (الرنا والدنا).

وهذا يمكن رصده بيسر من توجهات الكتابة بداخل أوراق الفيلوجيني، فالبعض يتجه لتقديم الخصائص والصفات الظاهرية مثل المورفولوجيا والفسيولوجيا، والبعض الآخر يميل لتقديم الخصائص والصفات الجينية، ولا يعني هذا استغناء أي منهما عن الآخر، وسترى أثر ذلك الخلاف على آراء تطور الحوت لاحقا.

وربما يكون من أسباب ذلك النزاع الدقيق – إن عُرِفَ السياق الأكاديمي حينئذ – هو المشكلة المهنية التي جابهت العلماء المستندين على الخصائص المورفولوجية أثناء عصر التوسع في الاتكال على البيولوجيا الجزيئية بالتسعينيات، فقد جعلت الجامعات أولوية التعيين عندها للعلماء الفيلوجينيين المستندين إلى البيولوجيا الجزيئية، وتراجع علماء الفيلولوجيا التقليدية إلى الخلف في المخصصات المالية المقدمة من الجامعة، فصاروا في الطبقة الثانية من ناحية الدعم المادي والتعيين الجامعي، وحاز الجزيئيون أيامها على كل الغنيمة، وهو ما كان له تأثير في نفور الفيلولوجيين المورفولوجيين من نتائجهم (20).

2 .2. إفساد البيولوجيين الجزيئيين ونظرية الداروِنية الجديدة لبعض الحقول العملية المهمة.□

وهذا الأمر متعلق بما سبق، إذ أن المدرسة الظاهرية تتهم البيولوجيين الجزيئيين، بنموذجهم الداروني، أنهم أحد أسباب إفساد العلوم، بسبب تفسيراتهم السطحية والسريعة، فكل ما دعم عندهم النموذج الداروني، هو الصحيح إلى أن يثبت العكس.

فمن ذلك، بحسب النقد المميز الذي قدمه جوينر: انطلاق الجزيئيين دوما من فرضية المرض الشائع – المتنوع الشائع CD-CV والتي تفترض أن الأمراض الشائعة تسببها أليلات موازية حاملة لها، وعليه كلما ظهر مرض معين عند إنسان؛ كلما وجدناه يحمل نفس الأليل المُسبِّب للمرض، وهي الصورة الحديثة للنظرية القديمة التي صورها فيلهلم جوهانسن في مطلع القرن العشرين، بأن الجينوتايب يُعطي فينوتايب مُتوقَّع / وبلغة أكثر تبسيطا، هذه الفرضية هي المسؤولة عن

الاعتقاد المنتشر عند العامة بتأثير الإعلام العلمي، أنه ما دام الشخص عنده (س) في الجينوم الخاص به، و(س) هذا يسبب مرض السكر مثلا = بالتالي فالشخص سيُصاب بالسكر حتما. وهي الفرضية التي جوبهت بتحديات تجريبية كثيرة، أثبتت أن الأمراض المرتبطة بالجينات، والمتوقع أن تظهر في الأشخاص الحاملين للأليل الخاص بها، وأصحاب التاريخ العائلي لهذا المرض، مثل السكر والضغط والسرطان، أظهرت انتشارا متساويا تقريبا بين الحالات المدروسة والحالات المُقاس عليها Control، أي أن الفارق لم يكن ذو نسبة واضحة بين من يحمل الجين المنسوب المرض إليه، ومن لا يحمله على الإطلاق، وفي تجربة عن مرض السكر (النوع الثاني)، استمرت الملاحظة فيها خلال عشر سنوات، ودُرس فيها حوالي 5500 شخص، وُجِد أن من ظهر عنده السكر ومن لم يظهر، كانت الفروق الجينية بينهما هي نفسها، وقد حدث مثل هذا مع 60 أليل آخر من المُنذرين بالمرض Risk Variant؛ ما السبب؟ غير معروف على وجه الدقة إلى الآن، لكن الحتمية الجينية هي آخر شيء يمكن للإنسان أن يدافع عنه حاليا، فالعوامل الخارجية مؤثرة بقوة كما ناقشت في كتاب دين المؤتفكات عندما تعرضنا لتأثير الإيبيجينتيك، إضافة لعوامل غامضة مجهولة لكنها تفتح الباب للتخمين والفرضيات.

أما المثل الذي يُضرب على التفسيرات الطبية الجزيئية الجميلة والمعقدة، والسريعة، والمستندة إلى التطور، ثم هي مع ذلك فاحشة الخطأ: تفسير زيادة الغدد العرقية عند عرقية الهان في الصين، فقد اقتُرِح أن سببها هو تطور جيني خاص بالإنسان في هذه الأماكن، للتكيف مع الظروف البيئية الرطبة والدافئة في ذلك الموضع من العالم، بل وعُيِّن هذا الجين التطوري / لكن الحقيقة أن الفسيولوجيين يعرفون منذ الحرب العالمية الثانية - حينما انتشر الجنود الأوروبيون في كافة أرجاء الكوكب - أن

الإنسان عنده قدرة فائقة على التكيف السريع على الأجواء الحارة والرطبة، وهذا يحدث خلال أيام قليلة فقط بعدة آليات فسيولوجية إنسانية مشتركة، منها مضاعفة إفراز العرق؛ فلا حاجة لتحورات تطورية في الجينوم عبر ألوف السنين!

ما أسباب خُذلان الداروينية الجديدة والجينوميين للطب؟ يحددها جوينر في عدة عوامل، أهمها:

أن العمليات الوظيفية البيولوجية متداخلة متعددة المستويات، ولا تحددها الجينات فقط، كما أن نقل المعلومات لا يكون دوما في اتجاه واحد، أي من الجينات (الجينوتايب) إلى المظهريات (الفينوتايب)، فهناك عوامل فسيولوجية خارجية تتسبب في تلك المظهريات دون أي صلة بالجينات، كما أنه ثبت أن الدنا ليس وحده المسؤول عن نقل المورَّثات، طيبها وخبيثها، بل الرضاعة الطبيعية مثلا تشارك في نقل الكثير إلى الطفل، إضافة لارتفاع شأن نظرية النسبوية البيولوجية، والتي ترفض تحديد المسببات في عنصر واحد، أكان الجينوم أو غيره (30).

3.2. خطيئة الشجرة، وباراديم الفوضى العارمة: اقتراحات الهجر.

من التساؤلات التي ظهرت كذلك في وجه الفيلوجيني: هل البيانات التي تظهر لدينا في نتائج تحليل الخصائص والصفات المظهرية والجزيئية للمخلوقات، تؤيد صورة (شجرة الحياة) من الأصل؟ أتلتقي كافة الأفرع في جذع، ثم يجتمع الكل في جسم شجرة، يمتد إلى جذر واحد؟!

الحقيقة أن الشجر برغم أنه نظري، مصنوع من فرضيات، غير طبيعي، ووسائل جمع البيانات صحيحة / إلا أن النتائج لا تدعم صورة الشجرة الكونية لتأريخ الحياة على هذا الكوكب، بل تُنتِج نُثارا فوضويا واهيَ الروابط. لذا اقتُرِحَ هجرُ النموذج النظري الذي خطَّه داروين في صورة شجرة، بدلا من إجبار النتائج على التقولب فيه،

والتعسف في رفض تحليل البيانات المحض دون ارتباط بالباراديم الفيلوجيني، وبالتالي تمحور هذا الاقتراح حول التركيز على فحص جينوم الكائن نفسه دون الهوس بمعرفة علاقته بأسلافه المفترضين (22).

وهذا الاقتراح بالهجر الذي ظهر في نهاية التسعينيات، رغم وجاهته إلى اليوم، إلا أن من السهل معرفة أنه لم يلق صدى، والسبب جلي، فالرجل يقول لألوف العلماء والباحثين في الغرب: اقطعوا معاشكم، وتبرأوا من شهاداتكم وأوراقكم العلمية، وابدأوا من الصفر! هذه مثال للدعاوى الصحيحة التي ستنفع العلوم البيولوجية وتوقف تبديد مواردها المادية وطاقات الباحثين فيها، لكنها مستحيلة عمليا في نفس الوقت، ولا يمكن أبدا أن تُنفذ طوعا من أي عالم عاقل على وجه الأرض! يمكن للإنسان أن يترك الجاه والسلطان والمال والدعم والمناصب، لكن كيف تطالبه أن يهجر معه أخص ما أفنى فيه عمره وزهرة شبابه: علمه؟! نعم الفيلوجيني هو علم ألوف الباحثين، وحياتهم وبحوثهم كلها في إطاره، وهجرهم إياه لن يكون وفيهم قلب ينبض، وهذا طبع إنساني غير مستغرب.

3. تطبيقات النموذج الفيلوجيني في الواقع.

والآن سنعرض لنموذجين يوضحان معنى الاختلالات التي يُحدثها هذا النموذج الفيلوجيني في الواقع، أولهما سمكة الكولاكانث، وثانيهما الحيتان.

3.1. الكوِلاكانث.

ساد في مطلع القرن الماضي الاعتقاد أن الزواحف هي كائنات متطورة من الأسماك.

ثبِّت هذا الاعتقاد عندك أولا، ثم حاول فهم ما يلزم من تنزيل النموذج التطوري:

سيستلزم ذلك إثبات وجود حلقات وسيطة، ذات تعديلات مظهرية (مورفولوجية) ووظيفية (فسيولوجية) متنوعة، تُثبِتْ ارتقاءَ أحد أنواع الأسماك، كي يكون زاحفا.

ما شكل الحلقات الوسيطة؟

هذا متروك لمهارتك في توظيف سجل الحفريات كي يخدم البارادايم!

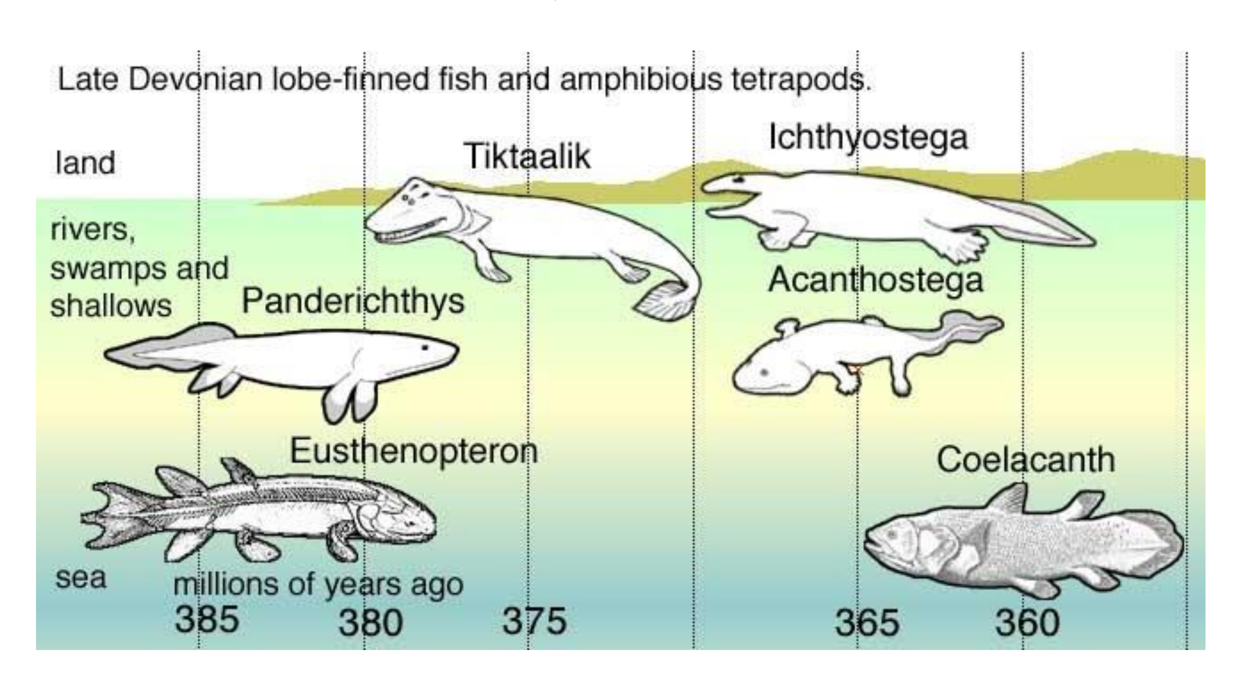
فإن أتيت بزاحف منقرض، أو موجود، ويستطيع العوم في المياه، أو سمكة لديها أقدام أو أشباه أرجل، أو قادرة على التحرك خارج الماء والبقاء في الهواء العادي = فقد فلجت، ونصرت البارادايم!

لاحظ أننا هنا قد أخذنا التطور كمسلمة، وهذا هو ما يُجادل فيه التطوريون / هم يقولون التطور حقيقة، لأن لدينا أمثلة من الحفريات تثبته، فإذا قلت بل الحقيقة هي وجود الحفريات، ويمكنني أن أفسرها بأن الله قد خلقها، دون تبديل، وينجح هذا البارادايم كذلك في التفسير، دون الحاجة لافتراض علاقة، وبذلك لا يكون التطور حقيقة، إنما هو مجرد نموذج نظري تفسيري مقابل نموذج آخر، دون الحاجة لعمل كثيف من أجل رصف المخلوقات المكتشفة في سلسلة مضطربة = هاجموك، ولهم الحق! إن فكرت بعقلية الوضعية العلموية، فأنت هنا تستعمل منهجا لا يفهمونه، وتأويلا لا يفقهونه، وحجاجا لا يرضونه، وهو افتراض وجود إله خالق، وهم يمنعون ذكر أي إله في معادلة الخلق، بالتالي يكون اضطراب تطبيقات نموذج التطور، أحسن عندهم، بل هو الحل الوحيد، لأن لا شيء غيره، ولا بارادايم في أيديهم سواه.

لذا يكون عمل العالم التطوري، هو فن، لا مجرد علم، فالعلم شركةٌ بينه وبين المؤمن، إنما التطوري هو الذي يملك مهارة تنظيم الدليل، بترتيب المخلوقات المكتشفة، سواء

كانت منقرضة أو موجودة، في سلسلة أقل إثارة للاعتراض! هو الذي يستطيع توظيف مادة الاكتشافات العلمية، في إثبات وجود حلقات وسيطة، بين كائن وآخر! فن الفيلوجيني!

نرجع إلى موضوعنا، قلنا إن الاعتقاد كان وما زال هو وجود علاقة بين الأسماك والزواحف، وقد استطاعوا عبر العقود رسم السلسلة الآتية من الحلقات الوسيطة:



ما هي الحلقات الوسيطة هنا؟

تبدأ من سمكة الكوِلاكانث، ثم سمكة الأكانثوستيجا ذات الأقدام، ثم التيكتاليك / هذا من جهة، وكذلك هناك سلسلة ثانية للتطور تبدأ من اليوسينوبترون إلى الباندريكثيس / وكذلك هناك كائن آخر هو الإكثيوستيجا.

تلك مجموعة من الكائنات، تتراوح بين أسماك محضة لكن بصفات شبيهة بما عند بعض الزواحف، وهي الكوِلاكانث واليوسينوبترون / ثم أسماك نهرية لها أشباه

أطراف للتحرك، وهي الأكانثوستيجا والباندريكثيس / وأخيرا كائنان يعيشان بين الأرض والماء.

تلك المجموعة من الكائنات يمكن إثبات تنوع المخلوقات بها، وهو تنوع الحيوان الموجود إلى الآن، بين أفراد الشعبة أو العائلة الواحدة؛ لكن البارادايم التطوري لن يُفكِّر بتلك الطريقة، فما عليك إلا ملء الفراغات كي تُثبت ما تنطلق منه أصلا، أي تطور الأسماك إلى زواحف، هنا يبدو للتنوع معنى جديد. إنه تنوع في خط متصل، ولا يضرُّ التطوريّ تباعد أماكن اكتشاف هذه الكائنات بوضوح، ولا اتكاله الكبير على الحدس والتخمين، إذ أن أكثر مواضع السلسلة هي حفريات لا أكثر، وغير موجودة في الواقع.

أهناك فارق بين (تخمين) صفات الحفرية، وبين وجودها في الواقع؟

بلا شك! وفارق كبير!

سأضرب لك مثلا بسمكة الكولاكانث: حتى نهاية الثلاثينيات، كان اعتقاد العلماء أن تلك السمكة المنقرضة من أرفع الأدلة على وجود سلسلة تطورية بين الأسماك والزواحف، فالحفرية الموجودة لها عمرها 400 مليون عام، ولها شبه رئة؛ فكل ما يجعل التطوري يحتفل متوفر فيها.

لكن توالي ظهور هذه السمكة في شباك الصيد، ووجودها في عدة أماكن من المحيطات، قد سبب ارتباكا ظل لعقود.

لنرتب مراحل الارتباك وأسبابها (31) (32):

أولا: وجدوا ابتداء أن السمكة الحالية، تماثل السمكة الموجودة قبل 400 مليون سنة، والاختلافات طفيفة جدا، مثل الموجودة بداخل كل نوع حاليا. كما أن التنوعات منها - كأن يوجد بعضها في صورة أكثر انتقالا للزواحف - منعدمة.

ثانيا: تسببت هذه الكشوفات في توصيف الكوِلاكانث بأنها حفرية حية، فقد توقع داروين في كتابه أن الكائن الذي لا يتعرض إلى منافسة بيئية، بسبب وجوده في مناطق مغلقة، سيظل كما هو بلا تطور، وسيصير حفرية حية Living fossils؛ لكن حتى هذا التوصيف لم يكن لائقا، إذ وجدوها في عدة مواضع بالبحار المفتوحة، والمحيطات، فأي انفتاح أكثر من ذلك؟!

ثالثا: بدأ الانتباه أخيرا، بعد عقود عدة، أن كل ذلك البحث في الكوِلاكانث البرية كان مُتحيِّزا لكونها مفتتح السلسلة! فلابد لسلسلة التطور من نقطة بداية، وبسبب سيطرة تلك الفكرة على العلماء، تحلقوا حول هذا الوهم، وتجاذبوه لعصور، حتى عام 2013، وقت الطبعة الأولى من هذا الكتاب، حينما صدر قول علماء الجينات، أن السمكة الحالية بطيئة جدا في التطور، وأنها لا تتصل جينيا بالحيوانات الأرضية، وبالتالي التخمينات السابقة التي ظلت قرنا كاملا تدور حول أصولنا السمكية كافة هي فقاعة من الهراء! فليبحث الدراونة عن سمكة أخرى أو يفكروا في أصل آخر غير السمك!

ذاك هو الفارق بين الحفرية، وما تفتحه من تخمينات وخيالات، وبين الوجود الحقيقي للدليل. تصوَّر مثلا أنه إلى الآن ما زالت في الويكيبيديا - المصدرُ الأوحد عند المساكين والحمقى معا - والعديد من المواقع الأخرى، توجد الصورة المعروضة بالأعلى، وتحتها ذات الكلام عن أصول الكائنات البرية التي تعود إلى الكوِلاكانث!

أسطورة راجت طوال قرن كامل على الأقل، مبناها أوهام جاءت من تفسير حفرية قديمة!

هذا هو ما أعنيه دوما بأننا لا نتنازع علميا الدليل، إنما نتنازع معناه، هم يصرون على البراديم التطوري، وبالتالي إضفاء قصص وهمية لخدمة السردية التطورية الكبرى، أو النموذج الكلي، في حين لا نرى نحن أن هذا الدليل يحتاج إلى رابط مع باقي الأدلة أصلا، اللهم إلا في أصل الخلق لا غير!

إن أدركت كل ما سبق، علمت وجه الاعتراض على التفاسير التي اخترعوها عن الكائنات البرمائية الأخرى، المنقرضة، التي اكتشفوها وحاولوا دوما جعلها نماذج للتطور. فالبرمائيات ذاتها لم تنقرض إلى الآن، لكنها لا تخدم كثيرا تلك السردية، لأنه قد ثبت أنها تُوشِك أن تُباد إذا انقرضت المسطحات المائية، ولم يبق أمامها سوى اليابس وحده، لاحتياجها الرطوبة = إذن اللجوء للبرمائيات المنقرضة أكثر أمنا، وأقل تكلفة، وأرحب للمخمنين!

فما هي الكائنات المنقرضة من تلك السلسلة التطورية؟

إنها كل السلسلة، ما عدا الكوِلاكانث (التي لم تعد في سلسلة يقينا)، واليوسينوبترون فقط!

الأكانثوستيجا، والإيكثيوستيجا، والباندريكثيس، والتيكتاليك، كافة أعضاء النادي الباقون = منقرضون!

2.3. الحيتانيات.

وهذه من أوضح نماذج الخلافات بين الظاهريين والجزيئيين، إذ أن سرديات تطور الحوت متنازع عليها بين نموذجين كبيرين، أولهما، يرى تقديم الخصائص الظاهرية (الفينوتايب)، وثانيهما يرى تقديم الخصائص الجينية (الجينوتايب).

ولنعرض أولا قصة اختراع حكاية تطور الحوت: في نهاية القرن التاسع عشر، عام 1891، لاحظ الجراح وعالم التشريح الإنجليزي ويليام هنري فلاور التشابه الظاهري بين أنواع شديدة التباعد من المخلوقات، وهي الحيتانيات Cetacea، وشفعيات الأصابع من ذوات الحافر Artiodectyle ungulates، إذ أن الخنزير والحوت بينهما تشابه تشريحي وفسيولوجي كبير، ومن هنا انتشر الاعتقاد أن الحيتانيات ذات قرابة فيلوجينية بالحيوانات ذات الحافر، واستمر هذا الظن مهيمنا على الحقل إلى الآن، ولكن دون الوصول إلى اتفاق حقيقي حول كيفيته، إما لفُقدان الأسلاف المشتركة المتوهمة، أو للخلاف حول حقيقة وجود القرابة من الأصل (33)! انتبه دوما إلى كيفية بدء القصة بملاحظات لطيفة لكن عادية إن نظرت إليها من جهة علمية محضة، ثم كيف أضفى عليها الفيلوجيني صورة مذهلة خارقة: الحيتان بينها وبين الخنازير وكافة عائلة شفعيات الأصابع (البقر، والجمال، والخنازير) صلة قرابة!

وقد ركز علماء الفيلوجيني أثناء حُقب التوكل على التشابهات المظهرية في إنشاء فرضيات تطور الحوت من شفعيات الأصابع، والبحث عن أكثر الحيوانات الشفعية قربا في نمط الحياة من الحوت، أو التركيب الداخلي، فتركز اهتمام العديد من الباحثين على فرس النهر لوجود تشابهات عديدة مثل عدم وجود الشعر، والصوتيات

تحت المائية - وإن اعتبرها البعض أمثلة على التكيف تحت الماء، ولا يجب بالضرورة أن تكون ذات دلالة فيلوجينية تطورية - ثم لما جاءت حقبة الجينات، قورن بين فرس النهر وشفعيات الأصابع عموما وبين الحيتانيات، ووجِدت اختلافات بالطبع، لكن فريق الباحثين المؤيد للقرابة لم يعتبر هذا مستحقا للتوقف عنده، إذ أن بين فرس النهر بالتحديد تشابها على المستوى الجزيئي يجعلهم يميلون - مع تحذيرهم أنهم غير متيقنين - إلى ترجيح فرضية القرابة بين الحوت وفرس النهر، وأنهما من سلف مشترك أو قرابة فيلوجينية من نوع ما(34) /من المهم الانتباه هنا إلى كيفية تفسير وجود اختلافات على المستوى الجزيئي: فما دام البحث يدور حول إثبات القرابة؛ فالأولى الاحتفاء بالتشابه، أما الاختلاف فيُعزى إلى التطور والتكيف على المستوى الجزيئي، ففي بحث جرى مؤخرا، قورن فيه بين عدة ثدييات أرضية وبين الحيتانيات، وجدوا اختلافا ظاهرا بغياب 85 جين أصيل في الثدييات ومعدوم في الحيتانيات، فبم فُسِّرَ هذا الاختلاف الجيني؟ استمع للتفسير الفيلوجيني التطوري: لقد (فُقِدت) هذه الجينات عند الحيتانيات أثناء عملية انتقالها من الحياة الأرضية إلى الحياة البحرية(35) .

باراديم تفسير الحواة لكل شيء!

إن وُجد تشابه كامل ستجد تفسيرا!

إن وُجِد تشابه جزئي ستجد تفسيرا!

إن وُجِد اختلاف كامل ستجد تفسيرا!

إن قيل يمين فالحق ما نصر اليمين، وإن قيل يسار فلا نُصِر من عاند اليسار!

لكن مع تنامي النزاع الخفي بين المظهريين والجزيئيين، كان من المفهوم ظهور نموذج ثويسن لتطور الحوت، وفيه رَفَضَ ريادة النتائج الجزيئية في توجيه البحث الفيلولوجي لسردية الحوت، ورفع من مرتبة التشابهات المظهرية بل عدها العامل الأساسي الرائد في توجيه البحث، واقترح نظرية لهذا التطور، بدأها أيضا من نفس الفكرة التي جاءت منذ عهد فلاور، أن الحوت كان في الأصل حيوانا برمائيا، اعتاد الماء، ثم عاش فيه من هذا الحين، واختار حيوانا من شفعيات الأصابع يشبه الراكون باعتباره هو الأقرب لأن يكون السلف الحقيقي للحوت، ورفض فرضية القرابة الفيلوجينية الوثيقة بين الحوت وفرس النهر، أو حتى سلف فرس النهر للحوت، وكانت أهم حيثيات الرفض أن حفريات فرس النهر تُبيِّن أنه ظهر إلى الوجود قبل خمسة عشر مليون سنة، بينما حفريات الحيتانيات تبين أنها ظهرت قبل خمسين مليون سنة، وبالتالي رأى ثويسن أنه لو كان لفرس النهر قرابة فهي بالخنازير، لا بالحيتانيات(36) !

وعليه بحث ثويسن عن أقرب الحفريات مشابهة لما يفترض أنه سلف الحوت، في جنوب الهند حيث يُعتقد أن الحيتانيات قد ظهرت إلى الوجود من تلك المنطقة تحديدا، وكان الإندوهيوس المُنقرِض هو الحيوان الذي رأى فيه إمكان التلاقي مع الحيتانيات، لامتلاكه طبقة عظمية تسمى Involcrum موجودة في الحيتانيات، وغير موجودة في شفعيات الأصابع سوى الإندوهيوس. من هذه النقطة، وكون عمر الحفرية يقارب الخمسين مليون سنة؛ بدأ تكوين نظرية، وسرد حكاية، بمساعدة تصور وتخيل البنية الهيكلية للإندوهيوس، التي لم يكن يوجد من بقاياها الكثير فيما عدا الجمجمة وبعض الشظايا هنا وهناك، فاستكمل ثويسن ورفاقه الصورة المفترضة برسم خيالي استعان فيه باستكمال تصوُّر المفقودات من النظائر عند حيوانات أخرى،

اعتمادا على القرابة الفيلوجينية المفترضة بين الإندوهيوس وعوائل الحيوانات التي قرروا أنه ينتمي إليها (36)، أي أنه حتى حفرية الإندوهيوس نفسها تعتمد في الجزء الأكبر منها على الخيال!

ولو رأيت التصور الذي رسمه ثويسن، لوجدت الإندوهيوس المتصور بحسب خياله، بل وبعض ما يصنفونه من أسلاف الحيتانيات، أشبه بالفقمات، أو أسود البحر، لكن التزامهم بالتصنيف حسب الحافر، يجبره على عدم تخيل هذا الحيوان إلا في سلسلة بين الحوت والثدييات الأرضية شفعية الأصابع.

وقد جاء رد الجزيئيين على ثويسن رافضين زعمه أن فرس النهر ليس من أقارب الحوت، مؤكدين على أن النتائج الجينية مقدمة هنا، وأنها تنفي زعمه(37) .

إذن نحن أمام نزاع معتاد من خلافات الفيلوجيني التي تحدثنا عنها، وإن كان من السهل فهمها في إطار ما بيناه من وجود فارق دقيق بين مناصري المظهرية، وهم هنا ممثلون في ثويسن ورفاقه من المتعصبين للسجل الحفري، ومناصري الجزيئية، وهم هنا ممثلون في فريق جيسلر، ولكل أدلته.

لكن من الملحوظات المهمة: أن العرض الشعبي للقضية، جاء في المجلات والصحف في الصورة الآتية: لقد كشفنا تطور الحوت! لقد نزل الإندوهيوس إلى الماء وصار حوتا! رحبوا معنا بالبروفيسور ثويسن الحاصل على الدكتوراه ليروي الحكاية!

لكن النقاش العلمي المحض، على هشاشة أسسه، لا يقول بكل ذلك! ثويسن في ورقته يوضح أنه يرجح (غير جازم) هذا السيناريو، ويرى أن الإندوهيوس هو من مجموعة أخت sister group لمجموعة الحيتانيات، وأنه لو وُجِدت قرابة لكانت بينهما

أوضح، فالاحتمال يكون إما أنهما متطوران من سلف مشترك، أو أن أحدهما سلف الآخر، أما فرس النهر فهو من مجموعة أخت للخنازير، وهم أقرب لبعضهما البعض من الحيتان / أما فريق معارضة ثويسن فيحسب أن فرس النهر قادم من سلف مشترك مع الحوت، إذ أنه من مجموعة أخت، وهو أقرب للحوت من الخنزير.

إذن السلف المشترك في الحقيقة ليس مفقودا وحسب، إنما هو مجهول أصلا، سواء في هذا الفرض أو ذاك، وإن كان ثويسن يضع احتمالا أن يكون هو الإندوهيوس! ثم إن علة تحول الإندوهيوس إلى الحياة البحرية الدائمة شديدة الغموض، فثويسن ورفاقه يؤكدون أنه كان يصيد في البر، ولا يعيش في غير المياه السطحية غير العميقة، فما سبب تحوله الكامل للحياة البحرية؟ يخمن ثويسن أنه ربما تعرض لخطر ما دفعه للبقاء الدائم في المياه!

والآن، إن أعدت قراءة كل ما سبق عن الحيتان، أيمكنك أن تخبرني: ما علاقة عناوين الأخبار، واثقة اللهجة، كثيرة المفاخرة، المغالية في الاحتفاء باكتشاف (سلسلة تطور الحوت) وحل اللغز = بالنقاش العلمي الحقيقي؟

حتى على سعة خيال فرق الفيلوجيني المكلفة بدراسة الحيتانيات، إلا أنها حاولت الالتزام قدر الإمكان بعدم الجزم في الأوراق الموضوعة للمناقشة العلمية، فهم يخمنون، ثم إنهم لا يؤكدون السلفية، إنما يعرضون فكرة المجموعة الأخت، مبينين أن السلف المشترك الحقيقي ما زال لغزا، وسبب ظهور هذه الصفات الجديدة من هذا السلف ما زالت لغزا، وسبب تحول هذه الحيوانات البرية إلى حيوانات مائية ما زال لغزا!

هذه القضية كلها - على هشاشة علم الفيلوجيني كله من الأصل - مُظهرةٌ للقارئ كيف تُرسم سيناريوهات التطور أولا، ثم تُعرض على العامة ومن هم في مرتبتهم من صغار الباحثين والعلماء البيولوجيين!

ولا أبرئ الوسط العلمي أبدا، بل أوضح فقط أن الأوراق المنشورة كثير منها لم يخلُ من الحذر والمقيدات وإيضاح اعتماد الباحث على جزء تخيلي لا ريب فيه، لكن كل هذا يُحذف بانتظام من نشرات المراجعات الدورية التي تُلخص قصة تطور الحيتان، والتي تُكتب بصيغ مؤكِّدة، ولهجة مفاخرة، وحكي يقيني لسردية تطور الحوت، انظر مثلا العنوان(38) : التطور الجزيئي يتعقب الانتقال التطوُّري الكبير في الحيتانيات!

القسم الثاني - نموذج الباليوأنثروبولوجي.

1. ماهية الباليو أنثروبولوجي وإشكالاته.

إن كان الفيلولوجيني هو علم الألف شجرة، وبارادايم الفوضى، فإن الباليو أنثروبولوجي هو علم الألف إنسان، وبارادايم الخيال المحض! والباليوأنثروبولجي هو فرع من البيولوجيا التطورية، متخصص في دراسة العلاقة بين الإنسان وغيره من الكائنات القريبة منه، عن طريق السجل الحفري بصورة رئيسية، وهو حقل (ابتكاري) بالدرجة الأولى، يسعى في تفسير عملية تطور الإنسان، عن طريق اختبار الفرضيات (39).

واستخدام التأريخ في عرض هذا الفرع العلمي ليس له كبير نفع، إذ أنه مقسم إلى قسمين كبيرين، إن اختصرنا الأحقاب المختلفة: أولهما ما قبل الحرب العالمية

الثانية، وفيه كان الحقل روائيا بالدرجة الأولى، يعتمد على سرد حكايات مطولة عن كل حفرية، وإلصاقها بالسرديات السابقة، التي تدور كلها حول فكرة داروين في نشوء الإنسان من أسلاف متدرجة تدور في إطار التصنيف الفيلوجيني للقردة العليا / ثم مرحلة ما بعد الخمسينيات، وفيها بدأ الحقل في الارتباط بباقي العلوم، جاهدا في وضع منهجية صارمة لاختبار الفرضيات، وإن كان هذا التطور لم يمنع من اعتبار الباليو أنثروبولوجيين، برغم استخدامهم المقاربات العلمية، ليسوا في النهاية سوى حكائين وقصاصين لا غير. لِمَ؟ لأن الحقل مملوء بألف رواية، ولا اتفاق فيه بعد داروين على أيها تمثل حقيقة وجودنا الحالي، كما أن أقوى فرضيات التطور الإنساني يمكن دحضها بيسر، إضافة بالطبع لفقر السجل الحفري للإنسان، وما يعدونه أقاربه، بصورة واضحة. وهذا الطابع الحكائي لهذا (العلم) رسخ حقيقتين فيه طوال تاريخه:

أولاهما، أن كل نظرية باليو أنثروبولوجية تحكي تطور الإنسان ستصبح منتهية الصلاحية بعد نشرها بوقت قصير / وثانيهما، أن السجل الحفري للإنسان وأقاربه، برغم فقره، إلا أن كل عظمة فيه لها عشرات التأويلات (39).

أما من جهة العلاقة بالفيلوجيني، فالباليو أنثروبولوجي من أكثر أفرع العلم إرباكا لجهود التصنيف؛ إذ ساد قبل الخمسينيات أن يُطلق على كل حفرية للإنسان القرد Ape man - وهو المصطلح الذي يُطلقونه على ما يقولون بأنه أسلاف البشر من قردة - الاسم الذي يقرر مكتشفوه أنه مناسب له بحيث يوضع في السلسلة التطورية المتوهمة، فكان يُطلق مثلا اسم رجل جافا، ورجل بكين، ورجل مورِ، وهكذا، دون معرفة مدى انتشار هذه الأنواع، حتى جاء ماير ودوبزنسكي، اللذان أعلنا عن

نموذج مبسط، فيه هذه الأنواع متتالية، غير متعاصرة، وبالتالي كان هناك دوما نموذج واحد يتطور للأمام باستمرار / وبرغم الاحتفاء بهذا النموذج حينا، إلا أن النقد الداخلي والخارجي في هذا الحقل بدأ يهاجم التعداد المفرط للأنواع، والفوضى الفيلوجينية الواضحة، وطلب جمع هذه الأنواع المتفرقة في صيغة حازمة، وتقليل الحكايات والتوجه نحو الدراسات الثقافية بصورة أكبر، لكن مع كل ذلك، بقيت مشاكل هذا الحقل مع التسمية والتصنيف قائمة إلى اليوم، ولا يُحمَّل هو وحده هذا الوزر، فقد رأينا فوضى علم الفيلوجيني المتجذرة (39)!

إلا أن ما بقي دوما بلا إجابة = لماذا نحن دون باقي المخلوقات الذي استمر تطورنا لنصبح بهذا الشكل الحالي، بل وبمعدلات سريعة؟ ما هو المحدد الذي وجهنا لنصبح في هذه الهيئة التي نحن عليها؟ إن الحوت، على سبيل المثال، هو أذكى ثاني المخلوقات على وجه الأرض بعد الإنسان، ولديه مخ متطور جدا، وبعض الدرسات تشير إلى أنه كانت لديه هذه السمة منذ 30 مليون سنة = إذن لِمَ لمْ يتطور مخ الحوت منذ 30 مليون سنة، ولم يمر بتغيرات عقلية، برغم أن المفترض عند علماء الحيتانيات الفيلوجينيين أنه أحد أكثر الحيوانات تحوُّرا في تاريخ مملكة الحيوان(40) / بينما مر الإنسان بكل هذا الانتقال العقلي السريع من شبيه قرد إلى القدرة الحالية؟ إن هذا السؤال المحوري في تاريخ التطور المزعوم للإنسان يظل من أغمض مناطقه وأكثرها بلبلة!

إلا أن ما يهمنا فعلا، هو المشاكل الداخلية في هذا الحقل، والتي يمكن تلخيصها في الآتي (41):

أولا، الانتقادات المستمرة المتصاعدة بداخل الحقل من علمائه، إذ أنه دائم التغير، ومولِّدٌ طوال الوقت لنظريات جديدة وافتراضات مُخترعة غير مسبوقة، إضافة للمنافسات القاتلة بين العلماء والبحاثة الدارسين.

ثانيا، ندرة الحفريات المتعلقة بهذا الموضوع أصلا، فهي أقل بكثير من دارسيها، كما أن أغلب المتاحف التي تحتفظ بالعينات لا تسمح سوى بدراستها في أول اكتشافها، ثم تغلق أبوابها دون المزيد من البحث والدراسة، بحجة الخشية عليها من التلف جراء التداول، إضافة لهدف ليس خفيا عن العارفين بالحقل، وهو الاحتكار العلمي للعينة من قبل إدارة المتحف وعلمائه.

ثالثا، تعاظم اعتماد هذا العلم على التخيل، بسبب ظهور برامج الرسوم ثلاثي الأبعاد، وغيرها من التقنيات، التي زادت من الخيالات، وبالتالي زادت من الخلافات، كما أن الاعتماد على المقاربات الكلادية في التصنيف برغم أنه طور الحقل في حقبة ما، إلا أنه أدى لانتكاسات في بعض جوانبه بعد ذلك.

رابعا، تصاعد الخلافات بسبب الرأي الرافض لزعم ضرورة القرابة السلالية اتكالا على التشابه الظاهري (المورفولوجي) والقائل بوجوب دراسة كافة الخصائص الأخرى الكلية من أجل هذا الحكم = وهذا انعكاس بالطبع للخلافات الأصلية في حقل الفيلوجيني كما عرضنا من قبل. فليس من الضروري أن يعني ظاهر التشابه الهيكلي بينك وبين مخلوق آخر = تشابهكما على المستوى الكلي للخصائص، وفي هذا بالتأكيد طعن في أحد أسس هذا الحقل السائل أصلا، والذي يعتمد بصورة رئيسية على التفسيرات السطحية السريعة للتشابهات بين الهياكل العظمية.

خامسا، ازدحام الحقل بالميول الأيدولوجية منذ الابتداء، وصعوبة إيجاد بحث خال من التحيزات فيه، إذ أنه منذ البداية أتى للوجود من أجل نقض المرويات الدينية عن خلق الإنسان.

سادسا، الدور الهائل الذي لعبته المتاحف والمؤسسات التعليمية في بناء الأوهام الشعبوية عن مراحل خلق الإنسان، وتقديمها في صورة نهائية لا تُظهر حجم المعارك الخلفية الدائرة حولها.

سابعا، الاستخدام الواسع والمكثف من العلماء للخيال في رسم صور الإنسان الأول وأسلافه، إذ أن ما يتوفر حقا هو بعض عظام أو جمجمة أو قطعة من فك، وكل هذا يمكن في أحسن حالات العظام اكتمالا أن يجعل العلماء يرسمون احتمال الشكل الهيكلي وحده لا غير / أما الجلد ولونه، والشعر وانتشاره وشكله، والعين وتفاصيلها، فكل هذه لا علاقة له بالعلم وراجع لقدرة العالم على إيجاد الفن التصويري، وخياله الواسع، ومعتقداته الشخصية = لذا يُقال إن كافة الأشكال والصور والهياكل الموجودة في المتاحف الغربية التي تصور الإنسان الأول، تُعرِّفنا بتخيُّل (العالم الغربي) للإنسان الأول وأسلافه، أكثر من تعريفها إيانا بالإنسان الأول وأسلافه المزعومين حقيقة!

ثامنا، الصعوبات البالغة التي يجدها علماء الحقل في الدفاع عن قرابة الإنسان بغيره من الحيوانات، لا أمام العامة فقط، إنما حتى بينهم وبين العلماء المختصين في مجالات بيولوجية أخرى قريبة ومشابهة لهم! إن السرديات المقدمة عن تطور الإنسان أوهى من أن تصمد للنقد العلمي.

تاسعا، دخول العوامل الشخصية والاقتصادية بصورة قوية جدا في توجيه الحقل، فمن ذلك أن علماء الباليوأنثروبولوجي في طلبهم الدعم المادي لبحوثهم، يحاولون دوما تقديم الجديد الذي يُحفز الشعب والسياسيين على نصرتهم، وهذا الدعم أحد المتحكمين في الترقيات، وبالتالي يتوجه البحث العلمي في الحقل أحيانا إلى فروض فرعية ويتعمق فيها، ويصرف فيها الجهود والأوقات، دون أن يكون الحقل بالفعل محتاجا إليها أو واثقا منها، إذ يهتم العامة بغير ما يهتم به العلماء، والمثال الأبرز: هي البحوث والنقاشات الكثيرة حول فرضية تزاوج إنسان نياندرثال من البشر، فبسبب التفاعل الشعبي معها، توجه الحقل لدراستها والتعمق فيها.

عاشرا، أثَّر التفاعل الإعلامي / العلمي الكبير في هذا الحقل تأثيرا بالغا عليه، فالعلماء يبحثون عن السمعة والصيت اللذين يستجلبان الدعم والترقية، والمرسلون الصحفيون يريدون المفاجآت الإعلامية، والأخبار الزاعقة الصادمة، المستندة على أقوال علمية، وبالتالي أثر الإعلاميون والاهتمامات الشعبية في هذا الحقل، وصار الباليو أنثروبولوجي من أبين الأمثلة على التأثير الفادح للعامة والإعلام على البحث العلمي نفسه!

حادي عشر، بسبب ازدحام هذا الحقل بالنزاعات، وجد الإعلام مادة خصبة لإشعال الخصومات والتحيزات الشخصية والردود المشتعلة بين رواده، وصار المراسلون الإعلاميون جزءا من الحرب العلمية - العلمية، فهم يستضيفون البعض ثم يحرضون الآخرين على الرد، وما إلى ذلك من وسائل الإثارة المعروفة، حتى وصل الحال إلى وجود أقسام خاصة في المجلات العلمية مختصا بالصراعات والتنافسات ومن قال ماذا ومن رد عليه وهاجمه!

ومن الجدير بالذكر، أن المشكلات بداية من التاسعة، هي أزمة في كافة الحقول العلمية تقريبا، لكنها ظاهرة بجلاء في الباليوأنثربولوجي، لأن البارادايم الخاص به مُبعثرٌ ومزدحم بالميول والأفكار والأيدولوجيات والتصورات الشخصية، ولا يوجد دليل صلب حقيقي في الحقل عن تطور الإنسان (42) وهو خيال أكثر منه علم، كما أنه مستند على بارادايم فيلوجيني قرأنا قبلا حجم فوضويته!

2. تطبيقات النموذج الباليوأنثروبولوجي.

الأعضاء الأثرية.

يؤمن الدراونة، أن بعض الأعضاء الموجودة في أجسادنا، مجهولة الوظيفة، هي مجرد أعضاء أثرية، كانت ذات وظيفة في أسلافنا الذين حددهم الباليوأنثروبولوجي، أي القردة العليا، ثم فقدت مع تطورنا وظيفتها، وبالتالي صارت مجرد بقايا تاريخية، بلا فائدة ولا وظيفة، وهم يعتبرون الاحتجاج بها من أقوى أسلحتهم.

وقد كان روبرت وايدرشيم، عالم التشريح الألماني، هو أول من جمع قائمة بالأعضاء الأثرية في الإنسان، وهي 86 عضوا، اعتبرهم مؤرِّخين لمراحل تطورنا، فكان من أوائل التنزيلات للبارادايم الباليوأنثروبولوجي على أرضية البحث العلمي للإنسان المعاصر / إلا أن هذه القائمة تقلصت بمرور الزمن، وتوالي المكتشفات العلمية التي حددت وظائف مختلفة لهذه الأعضاء.

وكان أن مُجِّدَ عضوان بصورة خاصة، باعتبارهما أوضح الأعضاء الأثرية، ولا يمكن شرح وجودهما إلا بالتطور، وهما الزائدة الدودية، والعُصعُص.

أما الزائدة الدودية، فقد كان الاعتقاد قبلا أنها عضو أثري، لأنها – مقارنة بما عند الثدييات الأخرى – كانت ذات فوائد أظهر وحجم أكبر مما عند الإنسان، بالتالي، وبسبب النموذج التطوري، ساد الإيمان أنها عضو أثري من عصور تواجدنا قبل البشري بين الثدييات الأدنى.

غير أن هذا الوهم قد تبدد طوال العقد الأخير؛ فقد ثبت علميا فعاليتها في حماية الإنسان، إذ تقاوم بعض أنواع البكتيريا المُمرِضة بداخل الأحشاء، وغالبا ما يكون مستئصلها أكثر عرضة للإصابة بأنواع معينة من الميكروبات، إضافة إلى تكرار الإصابة بها المرة تلو الأخرى(43) ، كما أنه يتعرض إلى انتشار البكتيريا المتواجدة في الأمعاء، إذ تخرج من نطاق وجودها في القناة الهضمية، إلى إصابة الأعضاء الخارجة مثل الكبد والكلى، أو ما يعرف بظاهرة الانتقال البكتيري BT (44)، وكذلك عُرِف دورها في إيقاف تكرار الإصابة بإحدى أقوى أنواع بكتيريا الإسهال، الكلوستريديوم ديفيسيل CD (45)، وكذلك ثبت دورها في حفظ الميكروبات المفيدة وأثرها على المخ(46) .

بل عورِضَ حتى الاعتقاد الطبي الشائع بأن إزالتها ذات أثر عظيم في تطبيب قُرحِ القولون، فشككت دراسات حديثة في تماسك النتائج الماضية وصحتها (47) وظهرت مقاربات تسعى لتخفيف تورم الزائدة الدودية دون إزالتها، بسبب المخاطر الصحية بعيدة المدى على مستئصليها(48) / وهي باختصار عضو مناعي مهم للغاية في الحماية الداخلية للإنسان (49) (50).

أما العصعص Coccyx المشهور باسم عظم الذيل Tailbone، فمن السهل إدراك سبب اعتقاد العلماء – حتى عقد أو عقدين – أنه عضو أثري لا فائدة حقيقية له، وأنه نتاج تطور الإنسان من قرد ذي ذيل، إلى الإنسان الحالي، لكن يدرك العلماء حاليا أن له أهمية وظيفية كبيرة في تيسير مجلس الإنسان وحمل ثقله، وكذلك تجمُّع العديد من العضلات والأوتار فيه، ودعمه المركزي لفتحة المستقيم (51)، وهذه الوظائف المكتشفة تؤيد تماما الرأي القائل بأن العصعص ليس بقايا ذيل بدائي، إنما هو النهاية الطبيعية للعمود الفقري والنخاع الشوكي، وله وظائف عدة لكافة الهيكل العظمي المحيط به مثل الحوض(52) / إنما جاء الاعتقاد الخاطئ بسبب أمرين، أولهما الأثر الباليوأنثروبولوجي والفيلوجيني، إذ منهما اعتقد العلماء أنه ما دامت الكائنات الموجودة في المجموعات الأخوات للإنسان تملك في هذا الموضع ذيلا، وما دام الإنسان قد تطور من سلالة ثدييات برية تملك ذيلا = إذن لابد أن هذا الجزء هو ذيل مضمحل أثري. وثانيهما، أنه لما كان استئصال هذا الجزء لم يُكتشف له مضاعفات كبيرة على صحة الإنسان، فلابد أنه بلا وظيفة ضرورية، وعليه يكون أثريا(53) !

ولن نطيل بتبديد الخرافات حول كل عضو قيل عنه أنه أثري ولا فائدة وظيفية منه، إذ نكتفي بعرض أبرز نموذجين لهذا الأمر تاركين للباحث المُريد تبديد الأوهام عن القائمة التي تتقلص يوما تلو الآخر، كحلمات الثدي عند الرجال التي وُجِدت لها وظائف جنسية تحفيزية واضحة في بحوث علوم الجنس(54) ، إنما قلَّت البحوث عنها والاهتمام بها لأنها مقارنة بحلمات ثدي المرأة تلعب وظيفة واحدة فقط من

الوظيفتين الرئيسيتين المتفق عليهما: الرضاعة، والإثارة الجنسية(55) . وكذا غيرها من الأعضاء المزعوم أثريتها وعقمها الفسيولوجي.

ولن نخوض في استخدام بعض الدراونة الأسلوب الحجاجي للكوميدي دوكنز في نفي وجود الإله، إثباتا لدارونيتهم! ويتلخص أسلوب دوكنز في السردية التالية: (نعم المخلوقات والكائنات رائعة، وتركيبها مبهر جدا؛ لكنها مخلوقة بأيدي الطبيعة لا الإله، إذ أن فيها عيوب في التصميم، أو على الأقل لم تُصمم على أحسن صورة ممكنة / فكيف للإله أن يصنع مخلوقا وفيه عيوب؟)، وإن جردنا حجاجه بصورة أكبر، سنجده على الصورة الآتية (الإله لا يخلق معيوبا / والمخلوقات فيها عيوب / إذن الإله غير موجود)، وتحالف ذلك الحجاج مع الباليو أنثروبولوجي ظاهر في التعليق على العين البشرية، واعتبارها من الأعضاء المعيبة الناقصة، الناتجة من تطور طبيعي محض، فهذا هو الأساس الذي أقام عليه بعض كتبه مثل (صانع الساعات الأعمى)، ففي رحلة من الإلزامات الطريفة والانتقادات المضحكة، يخوض بنا دوكنز في إظهار المعايب التي يأخذها على الخالق في المخلوقات (56)، وينقد في مواضع أخرى حتى ما اتفق العلماء على روعة تكوينه مثل العين البشرية، وهو يصل في أكثر نقاشاته إلى درجات من السخف والسفاهة يترفع عنها بعض أحمق التلامذة، ولن أتوجه إلى رد نهيقه وبيان أحموقاته، إذ أن هذا خارج نطاق الكتاب أولا، ومُطوَّل في عشرات المواقع والمواضع والكتب ثانيا / إنما يهمنا هنا بيان استخدام الدراونة لحجة الأعضاء الأثرية كثيرا في نقاشاتهم، وبيان صلة تلك الحجة بعلمي الفيلوجيني والباليو أنثروبولوجي.

القسم الثالث – الهروب بداخل البارادايم.

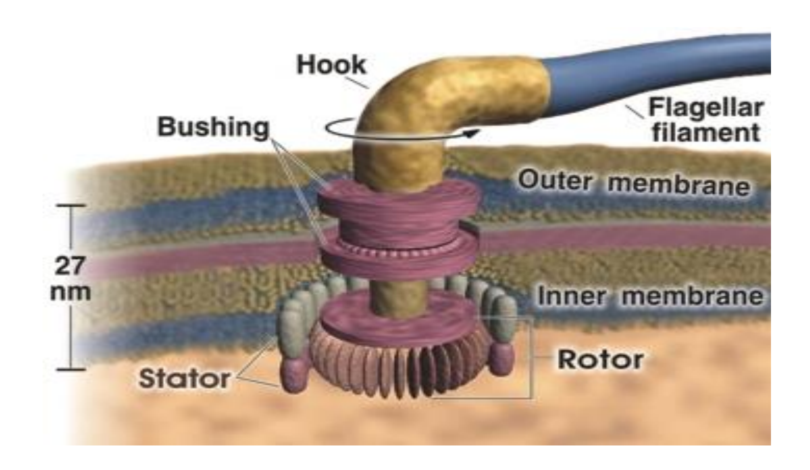
لعلك بعد تلك الرحلة السريعة والفقرات الموجزة، قد طالعت بعضا من حجم تعقُّد البارادايم التطوري، ورأيت جزءا من قدرة العلماء على تفسير كل شيء بحق أو

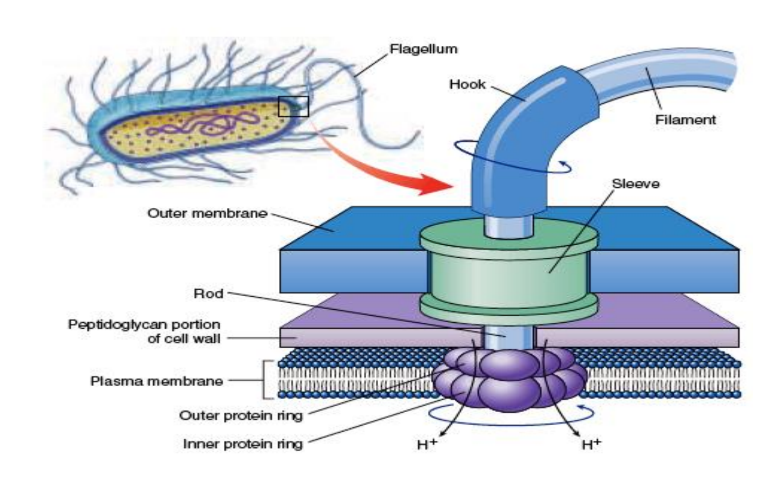
بباطل، وافق الواقع أم خالف، وهو ما تعرضنا له في انتقادات إفساد الداروينية للمجال الطبي.

وسنعرض هنا أشهر محاولات تلفيق النموذج التطوري مع وجود الإله، وهي محاولة مايكل بيهي عالم الكيمياء الحيوية في كتابه صندوق داروين الأسود (57).

مسلك بيهي في نُصرة التطور الموجه على التطور الإلحادي.

ملخص المسلك البيهي: إثبات أن تصميم سوط البكتيريا مُعقَّد جدا، وأن إزالة جزء واحد منه، على حجمه الدقيق، سيتسبب في إفشاله وظيفيا، وإيقافه عن العمل، فهو أشبه بمحرك مُركَّب بإتقان، وقد سُمي هذا بالتعقيد غير القابل للاختزال Irreducible Complexity، إذ لا يُمكنك حذف أو اختزال ولو مسمار صغير في هذا التكوين الإبداعي = ويدل هذا بالتالي على وجود صانع ساعات واع، لا أعمى كما يزعم الملاحدة، فلابد من يد خالقة لهذا السوط، طورته ليؤدي وظيفة معينة. (انظر الشكلين الآتيين لسوط البكتيريا وأسلوب عمله في الحركة). إذن يزعم بيهي أن ثمَّ تطور، غير أنه يلزم وجود عقل رباني وراء هذا التطوُّر، بدليل التركيب المُتقن والدقيق لأعضاء المخلوقات كي تؤدي الوظيفة المطلوبة، ومثاله هو سوط البكتيريا، الذي إن تغير تركيب كيميائي واحد فقط فيه صار بلا نفع ولا فائدة.





شكل سوط البكتيريا: هذا التركيب مصنوع من الطبيعة ولا خالق له، كل هذا التعقيد صدفة لا غير.

وقد كان من أبرز الذين اصطدموا معه، عدو التصميم الذكي اللدود، كينيث ميلر، في كتابه (فقط نظرية)، وقد كان كتابه، الذي وضعه للرد على بيهي بصورة رئيسية، هو استمرار لمعارك في القضاء الأمريكي، بين طرفين، أحدهما، وهو طرف الدراونة الملاحدة مثل ميلر، يرفض أن يوصف التطور الداروني العلموي بأنه نظرية، بل لابد من أن يوصف في مناهج التعليم بالحقيقة الحتمية، والطرف الآخر، التصميم الذكي، أي التطور الموجه من إله، الرافض لتوصيف مزاعم الدراونة، والمصمم على تسميتها بالنظرية(58) .

استخدم ميلر في الكتاب الأسلوب الدوكنزي في الحجاج، الذي عرضناه قبلا: محاولة إثبات وجود نموذج أفضل كان يمكن أن تُخلق به المخلوقات، والاستدلال بهذا على عدم وجود إله؛ إذ أن الإله هنا أعمى، لا يرى النقصان الذي صنعه بيديه، ولا يعرف الكمال الذي يعرفه ميلر وزملاؤه / فكان مما استخدمه في الهجوم على بيهي، ادعاء أن إنقاص سوط البكتيريا أي عنصر كان سيطوره لأداء وظائف أخرى، كما قد تنقص مصيدة الفئران جزءا، فتفقد وظيفتها في صيد الفئران - وقد استخدم بيهي مثال المصيدة - لكنها قد تملك وظيفة أخرى كمشبك يستخدمه الإنسان لأغراض أخرى!

والخوض في هذه المعركة سيخرج بنا مرة أخرى عن المسار، ونقاش أسلوب الحجاج نفسه يحتاج لجزء خاص، لكنه داخل في مجال نقاشات الإلحاد، وهذه لها كتبها وهي وفيرة ولله الحمد / لكن ما يهمنا من هذا الحجاج التعرف على مشكلة التحرك بداخل النموذج التطوري: أي الرد على بيهي نفسه، لا دجل ميلر!

الحق أن السعي في إثبات وجود إله خالق، باستخدام نموذج مصمم بالكامل لمحاربة هذا المعتقد، جعلنا نرى حال بيهي تلك، إذ أنه يؤكد أن التطور حق، لكن العشوائية باطلة / فكانت الإجابة عليه من داخل نفس النموذج الذي يحتكم إلى قوانينه: ما دام التطور حق، فالتعقيد ممكن الاختزال، لإنه سيُنتِجُ وظيفة أخرى، ولا بأس في ذلك، فما التطور إلا ضربات ريشة الطبيعة لتنتج مجموعة من الوظائف بالأدوات التي تملكها!

لكن ماذا لو أن بيهي كان قد رفض التطور من بابه؟ ماذا لو كان قد قال أن العضو كذا مخلوق بالتركيب كذا، من أجل الوظيفة كذا؟ إن هذا كان هو الحل الوحيد إن أراد بيهي تلافي المطعن في نموذجه بحجاج ميلر وأمثاله، وهو حجاج قائم كله

على إثبات سيولة الوظيفية، وهي من سمات النموذج التطوري العلموي، مقابل الحتمية الوظيفية، التي حاول النموذج التطوري الإيماني والتصميم الذكي الدفاع عنه.

إلا أن الحق، أني لا أرى نموذج بيهي كان موفقا في الحجاج بشكل عام؛ فغير أنه قد سعى للتحرك بداخل نموذج مُهيكل لمنع الحركة تجاه الخلق المُتقن تحديدا / كان يضع نفسه - بتحديه المبالغ في نفي الفائدة الوظيفية للأعضاء إن بُتِر منها جزء - في مرمى السهام؛ إذ أن اليد قد يُقطع منها أصبع، لكنها تظل مع ذلك تؤدي نفس الوظائف لكن بكفاءة أقل، بل وقد رأينا تكيُّف بعض الناس المبتلين بفقد اليدين، واستخدام أقدامهم كي تؤدي وظائف اليدين، بصورة مدهشة لم نكن نتصورها، وكلامي هذا هو الآخر قد يُردُّ عليه بأن المقصود هو كمال الوظيفة، لا النقص، فيستمر الجدل / وعليه لا أميل لنظام حجاج بيهي بإطلاق، ففي حتمياته مخالفة أصلا لقوانين الطبيعة التي خلق الله سبحانه وتعالى فيها التكيُّف بشكل عام، وهو غير منكور، إنما المُخالف، كما ذكرنا، هو الاعتقاد بأن التكيف يصل لدرجة نقل نوع لنوع آخر.

وقد حوصِرَ بيهي من هذين المدخلين: أولهما، حتميته الوظيفية والتركيبية، وثانيهما، تحركه بداخل النموذج الداروني، ولولاهما ما كان قد بزه ميلر ولا غيره، بأسلوب الحجاج المرذول المتعجرف القائم على اختراع المعايب في المخلوقات!

فلا هروب من النموذج التطوري بكافة أركانه = ما دمت قد ولجته طوعا!

القسم الرابع - محاجات الداروني͏ة المتأسلمة بالفيلوجيني والباليوأنثروبولجي

والآن نأتي إلى ختام الفصل، وفيه نناقش كيفية توظيف الفيلوجيني وعلوم الحفريات والباليوأنثروبولوجي في كتابات الداروني͏ة المتأسلمة، وبشكل خاص الكتاب النموذج لدكتور عمرو شريف: (كيف بدأ الخلق؟) وينقسم حجاج كتابه إلى قسمين كبيرين، أولهما الاحتجاج بالحفريات وبنظريات الباليو أنثروبولوجي، وثانيهما الاحتجاج بالبيولوجيا الجزيئية.

1. الاحتجاج بالحفريات ونظريات الباليوأنثروبولوجي.

لا ريب أن القارئ لكتاب د. عمرو شريف، في موضع احتجاجه بالحفريات، يلحظ الآتي:

أولا. أنه لا يضع كبير أمل على السجل الأحفوري، لمشاكل سنعرض لها، وينتهي كلما ضُيِّق عليه إلى الإرجاء حتى عرضه الدليل القاهر الخارق: البيولوجيا الجزيئية، والتي سيفخمها ويمجدها كسيف صارم حاسم، مُطمئنا القارئ بأن أي وهن في السرد الأحفوري سيعالجه الجينوم، فيقول: (لا شك أن علم حفريات الإنسان علم حقيقي منضبط، لكن تنقصه المادة العلمية)! ويقول كذلك: (رفض الخلقويين لمفهوم التطور بناء على تفنيد الأدلة السابقة (الحفريات) لا لزوم له ولا دلالة لنتائجه؛ فقد جاء علم البيولوجيا الجزيئية بالأدلة الأقوى والأبقى والتي لا تدحض)! وكذلك: (احتارت حفريات الإنسان القليلة بين التطوريين والخلقويين، ما بين إثبات

التطور ونفيه، لذلك فكل عظمة صغيرة تكتشف هنا أو هناك يمكن أن تغير من تفاصيل سيناريو التطور) وكذلك (بالرغم من ثراء سجل الحفريات الآن - أكثر من مائتي ألف نوع - فإن الصورة التي يُظهرها ليست بالشجرة التي تتفرع تدريجيا من الأدني إلى الأعلى إلى الأكثر تعقيدا وتحتاج لملء بعض الفراغات الانتقالية، ولكن يظهر سجل الحفريات على هيئة مجموعة من الكائنات الحية غير المترابطة وتفصلها مساحة خاوية واسعة، بل إن الحفريات الجديدة أظهرت فراغات أكثر تحتاج إلى ملء) =فمن اللطيف أنه اعترف بكون استدلاله بالسجل الحفري ضعيف علميا، وأن عظمة واحدة يمكنها أن تهدم نظريات، وأن حفريات الإنسان محتارة بين طرف إثبات الخلق، وطرف نفيه، وأن السجل المزدحم بالحفريات لا يرسم أبدا شجرة / لكن المدهش أن هذا كله لا يؤثر في صلفه وكبرِه وإيمانه بالدارونية، ولا يمنعه من الهجوم القاسي على الناقدين!

ثانيا. أنه يتحيز في نفس الوقت للرؤى والتأويلات الداروني للسجل الأحفوري أمام نظرية المسلمين عن الخلق، ويهاجمهم مستخدما ذلك النظام المعرفي العلموي كالدراونة الماديين حذو القذة بالقذة، رغم اعترافه الوجِل بمشاكله.

فعلى سبيل المثال، حينما ينقض هو نفسه أسطورة حفرية إنسان جاوة الذي هو ليس بإنسان، والذي رُسِم وجهه وهيئته من (عظمة فخذ وثلاث أسنان وجزء من عظمة الجمجمة) مع (قدر كبير من التخيل بطبيعة الحال)؛ وهو التخيل الذي ولده التحيز المبدأي لفكرة انتماء هذه العظام إلى حلقة وسيطة بين الإنسان والقرد فتصور الوجه بهذا الشكل؛ تجده يسارع بالاستدراك قائلا: (إن ذلك لا يعني هذا أننا نجاري الخلقويين في نبذهم لحفريات أشباه الإنسان فقد ظهرت أدلة حفرية أخرى

تجزم بحدوث التطور)! معاذ الله أن يُجارى المسلم الغُفل، القائل بعدم تطور الإنسان، والمصر على وهن ما اعترف هو بنفسه أنه علم سائل فاقد للأدلة القاطعة!

ومن ذلك، استخدامه لغة داروينية محضة في عرض جماجم قردة ما قبل الإنسان، فيتبنى الإطار التطوري التقليدي القائل بأن هذه التدرجات لا تفسير لها سوى تطور العقل الإنساني وعليه تطور الإنسان من القردة، فيقول (جماجم هذه الكائنات تتدرج في سعتها وبالتالي حجم المخ الذي يشغلها من 450 سم والتي تساوي مخ حجم الشيمبانزي.. حتى تصل إلى جمجمتنا التي تحوي مخا حجمه 1350 سم تقريبا)! أسمعك تتساءل مستفهما: أهذا هو الدليل (الجازم) الذي (لا شك ولا مرية فيه) على تطور الإنسان من قرد؟! أيعني وجود مجموعة من الجماجم مختلفة الأحجام في الحفريات وحدة الأصل؟ ولم الحفريات؟ ألا توجد اختلافات في الحجم بين جماجم القردة والإنسان والشيمبانزي والغوريلا إلى الآن؟ أيعتبر هذا دليلا على وحدة النوع واختلاف أطواره أم على اختلاف النوع؟! لم لا تكون تلك الحفريات العديدة هي مجرد قرود وُجِدت على ظهر الأرض وانقرضت بعض أنواعها بينما بقيت أخرى؟!

إن كل تلك الأسئلة التي تجري على لسانك لا معنى لها، رغم بداهتها لك كمؤمن، إذ أنك تنطلق متحيزا من نموذج قرآني، أما هو فينطلق متحررا وفيا للعلم والباراديم الداروني والأنثروبولوجي الذي يقبله السادة الأكاديميون في أوروبا وأمريكا- كما يزعُم!

تذكر دوما أنك تستخدم نموذجا مُحرَّما في الأكاديميا!

إن عمرو شريف وإن زل واعترف بوهن هذا الباراديم العلمي في سطر أو كلمة، إلا أن هذا لم يردعه عن الوفاء للداروينية، والتعصب لآرائها، والإيمان بنظرياتها الكبرى، واستخدامها لطعن النظرية الإسلامية عن الخلق.

وستجد مثال هذا أيضا في حديثه عن حفرية الأركيوبتركس، وهو طائر، أو ديناصور مجنح، وُجِد في ألمانيا بعد ظهور نظرية داروين بعامين فقط، واستخدمه الأوروبيون الدراونة من وقتها إلى اليوم في حجاجهم بأنه نموذج للحلقات الوسيطة بين الديناصورات أو الزواحف وبين الطيور(59) ، وسيتابعهم عليه عمرو شريف في عرضه كدليل عظيم على التطور، فيقول مستهزئا بمعارضي الاستدلال بتلك الحفرية (لجأ الخلقويون إلى الأسلوب الذي استخدموه كلما تم العثور على حلقة وسطى، لقد اعتبروا الأركيوبتيركس نوعا منفصلا من الطيور المنقرضة)! / سحقا للخلقويين المسفسطين! أيرون حفرية لديناصور فيه ريش وأجنحة فيقولون هذا نوع جديد من الديناصورات، ولا ضرورة اتصال بينه وبين الزواحف أو الطيور كوسيط؟! لابد من تحركهم في إطار الفيلوجيني، لابد أن يقولوا هذا جد الطيور! هذا هو (العلم) كما نعرف جميعا!

لنتوقف لحظة هنا، لأعيد تصوير المشهد لك: تصور أنك تجد زاحفا مُريَّشا مُجنَّحا، وأن هذا هو العينة الوحيدة لهذا النوع بتلك الصورة، ثم بدلا من أن تصنفه نوعا جديدا، تعتبره سلفا للطيور، دون أن تسأل نفسك كيف يكون هذا حلقة وسيطة وعنده أجنحة، فمتى تطورت؟ ولِمَ وهو كائن بري لا يحتاج ذلك؟ سلمنا أن الزواحف خرجت من الماء للتكيُّف؛ فكيف طارت؟ وما هي الظروف البيئية والغذائية الأفضل في سمائه الفارغة من النبات وذوات اللحوم إذ لا طيور حينها؟ ثم أين الحلقات الوسيطة بين ذاك الديناصور ذي اليدين، وبين ذي الأجنحة؟ كيف ظهر الثاني فجأة؟ ثم الريش! كيف ظهر؟ نمط النمو والفسيولوجية مختلفة تماما، لِمَ ظهر أصلا وكيف؟ ثم دفعة واحدة يظهر؟ ثم بعد ذلك أين السجل الحفري الوفير للتناقص في النمو والاختزال الضخم الذي جعل هذا الديناصور يتحول إلى دجاجة كما يعشق

ظُرفاء تبسيط العلوم مفاكهة الناس بهذه (الحقيقة)؟! عند الدكتور شريف، كما عند الدراونة، كل هذه الأسئلة داعية للسخرية والتهكم وازدراء العقول الدينية المؤدلجة المتعصبة!

سأكرر للمرة الأخيرة، واغفر لي إثقالي: لديك عظام زاحف رباعي الأطراف، ولديك عظام زاحف مجنح، وليس بين يديك سواهما = أخبرني بالله عليك: بأي عقل تربط هذا بذاك، وتقول هذا سلف ذاك، وذاك سلف الطيور الحالية، إلا إذا كان عقلك لا يعمل إلا بنظام تشغيل واحد لا غير، هو نظام الفيلوجيني؟!

لهذا السبب نجد عمرو شريف ينتفض إذا قيل عن التطور نظرية يُحكَم عليها بالثبوت أو النفي بقدر قوة الأدلة! وأدلتها كما قال هو نفسه في كلامه عن السجل الحفري ليست بالقاطعة - إذا سلمنا بصحتها أصلا - وأن التشابه الموجود بين الكائنات، دليل على وحدة الخالق، لا على وحدة المخلوقات، فيرد على هذا بقوله (لا شك أننا لو عولنا على تفسير الظواهر العلمية على مشيئة الله لانتهى العلم، كل علم)! وهي إجابة، بغض النظر عن انقطاع صلتها بالاعتراض المُقدَّم، والحجاج المنطقي الذي فيه، لا يمكن أن تصدر من شخص يؤمن أن التطور حدث بمشيئة الله، وبتدخله المستمر لتوجيهه! أي بؤس أن تجابه المسلمين بروح رجل مادي متعصب، ثم تجابه الماديين بروح رجل غيبي متعصب! هذا خطل وأيم الله، لا وسطية فيه ولا اعتدال، ولا يرتاح إليه إلا الجاهل بطبيعتي العلم والدين كليهما!

ومنه، انتصاره للتفسير الداروني برغم عرضه للانفجار الكمبري.

ولنُعرِّف أولا به: إذا اعتبرنا أن عمر الأرض يدور في حدود أربعة مليار سنة، فإن تاريخها ينقسم حتى 485 مليون سنة إلى مرحلتين كبيرتين، الأولى عصور ما قبل

الكامبري، وتمتد من بداية وجود الأرض إلى حدود 540 مليون سنة، ثم عصر الكامبري الذي امتد حوالي 55 مليون سنة، ثم عصور ما بعد الكامبري إلى حاضرنا.
والذي لا يعرف تاريخ ظهور الكائنات جيدا، ويؤمن بالتطور، قد يحسب أن المخلوقات منذ وقت ظهورها قد تدرجت في الصعود بصورة انتقالية، شيئا فشيئا، بصورة متعادلة إلى حد ما، أو منطقية في التدرج، حتى الوصول إلى الصور المعقدة المركبة للمخلوقات الموجودة الآن / لكن الواقع غير ذلك، بإجماع العلماء، والسجل الحفري! الحق أن الأرض ظلت طوال 3.5 مليار سنة تقريبا، أي إلى حدود عصر الكامبري، لا يوجد بها سوى مخلوقات وحيدة الخلية، بسيطة، مثل الباكتيريا، ثم مخلوقات أخرى في نهاية عصور ما قبل الكامبري، بسيطة تشبه الاسفنج، يعتمد نمطها الغذائي على الامتصاص المباشر للطعام من أعماق البحر؛ ثم (فجأة)، أثناء العصر الكامبري، ظهرت جمهرة المخلوقات والحيوانات الموجودة حاليا! في عصر واحد، ودفعة واحدة، بعضها بأعين مركبة، وبتصاميم وظيفية وفسيولوجية معقدة ومتخصصة، ويعرض د. شريف هذا كالآتي: (وقعت المفاجأة الكبرى عندما ثبت لعلماء الحفريات أن انفجارا أحيائيا كبيرا قد حدث في العصر الكمبري وأن جميع الكائنات الحيوانية ظهرت فجأة في هذا العصر - منذ 450 مليون سنة - وبدلا من أن تشبه شجرة الحياة العظمى لدارون هرما مقلوبا يقف على رأسه - وهو الخلية الحية الأولى - أصبح الوضع الحالي هرما مستقرا على قاعدة عريضة جدا تشكلها جميع الكائنات الحيوانية التي ظهرت في العصر الكمبري).
ولأسأل القارئ هنا: أهذا الكلام داعم لسردية التطور التدريجي، الذي يقول هو عنه: (يسير ببطء شديد)؟!

سأدعو القارئ لمشاهدة عشرات الحلقات والفيديوهات والكتابات التي تتحدث عن هذا الانفجار الكمبري، ولن أُحيله على شيء محدد يؤثر على رأيه، بل ليتتبع هو بنفسه كم الغموض والتفاسير المُرقّعة لهذه الفجوة العملاقة في النظرية، مثل تفسير الأوكسجين المتنامي، وتفسير المغذيات المتنامية وذوبان الثلوج، وإلى غير ذلك من محاولات لا ترقى إلى نقاش جدي عن سبب هذا الظهور المفاجئ والمتنوع والضخم للكائنات في زمن قصير جدا من عصور تطور الأرض! هذه القضية من أطرف ما يمكن أن ترى فيه حيرة الدراونة وتخبطهم.

ولعل هذا الانفجار تحديدا هو ما يعجز عن تفسيره أي باراديم تطوري، إذ لا يمكن سوى الباراديم الإسلامي وحده التفسير، ولن أقول الديني مطلقا، إذ أن الباراديم التوراتي فيه خلق الكائنات والإنسان في أيام خلق الأرض الأولى دفعة واحدة / بينما أُنزِل الإنسان في النموذج الإسلامي من السماء أو وُجِد في أرض سابقة على ظهوره، فيها مخلوقات، وليس لها عمر محدد ضيق كالنموذج التوراتي، وليس فيه ما يمنع أن تكون الكائنات الأرضية قد خُلِقت على دفعات متتالية عبر ملايين السنوات، بل إن فيه ما يُرجِّح هذا النموذج تحديدا = وعليه، لو تدبرت، ما وجدت تفسيرا للانفجار الكمبري إلا النظرية الإسلامية للخلق تحديدا.

فهذا كان أبرز ما يتعلق بالتعامل الداروني المتأسلم مع السجل الحفري، والباليو أنثروبولوجي، غير أن الدكتور قد عول كثيرا على الدليل القادم، أي البيولوجيا الجزيئية، لسد الثغرات العملاقة في هذا الاستدلال.

2. الاحتجاج بالبيولوجيا الجزيئية.

هذا هو آخر وأقوى أسلحة الداروينية المتأسلمة ود. عمرو شريف المستخدمة في دعم التطور، وسيفيد القارئ تعرضنا لها في الجزء الأول من الفصل، إذ أنه سيكون قد أبصر حدود علم البيولوجيا الجزيئية، وأبرز مواطن إفساده، وحجم فشله الذريع في حسم الأمور، و انقلابه إلى عامل في إشعال حدة الخلافات. وسأعرض هنا طرائق استخدام هذا الدليل، والرد عليها.

بداية، يطلق الدكتور عمرو شريف على فصل الاحتكام إلى البيولوجيا الجزيئية: (قراءة الجينوم. وحكم لا يقبل النقد) هذا هو عنوان الفصل! ولا أعلم أكان متعمدا استعمال مصطلح: نقد بدلا من نقض، إيحاء بأن قول علماء الجينوم لا يحتمل حتى مجرد المس بنقد، لا الهدم بالنقض!

لذا، فنقدنا لهذا (الحكم غير القابل للنقد) سيرتكز على إثبات أن نسب التطابق لا تمثل هذه الأهمية البالغة التي يحاول الدكتور ومعه التطوريون العرب التعويل عليها، وهو نفسه يقول (أن الفوارق الأساسية بين الكائنات الحية لا تكمن في الجينات في المقام الأول، بقدر رجوعها إلى الدنا المسئول عن تشغيل وإبطال هذه الجينات)، لكن كما رأينا في الاستدلال الأول، حتى لو اعترف بوهن في استدلاله، لا يتوقف عن التبجح به والهجوم على المسلمين ونظريتهم، وهذا عجيب!

وسنعمل بالترتيب على تفنيد الحجج الواردة في استدلال د. عمرو شريف والتي استخدمها لإثبات السلف المشترك وهي: حجة القرابة بسبب تشابه أو تماثل عدد الكروموسومات، ثم حجة التشابه الجيني، ثم حجة الكروموسوم الثاني.

أما أولها، أي حجة وجود القرابة بسبب تماثل عدد الكروموسومات أو تقاربها؛ فقد استخدمها لإثبات قرابة الإنسان من القِرَدَةِ، وبرر اختلاف عدد الكروموسومات بين الإنسان والشيمبانزي، إذ هي عندنا 22 زوجا، وفي الشيمبانزي 23، محتجا بالكروموسوم البشري الثاني، وهي نظرية تزعم أن الإنسان عنده كرومسوم مزدوج، كان في الأصل كروموسومين، لكن عندما حدث الانفصال عن القردة العليا، اندمجا معا. ولم يكن من الصعب قطع دابر تلك النظرية من أنصار التصميم الذكي، إذ أثبتوا أن مواضع الالتحام المزعوم هي أماكن نشاط جيني ووظيفي، وهو ما يدحض فكرة أنها مواضع عشوائية أو خاملة جاءت من التحام ما (60) (61)، لكن لما كان الذي بين أن هذه الخرافة، أي الدكتور جيفري تومكينز، عالم الجينات، من أنصار التصميم الذكي = فقد قال أن هذا الالتحام لو حدث فلابد أنه بيد خالق راعية، أتمت الالتحام كأنه لم يكُن! ونحن نسأله: ولِمَ ليس (لم يكُن) من الأصل يا دكتور؟! هذه هي مشكلة التحرك في إطار البارادايم الداروني كما ذكرنا قبلا عن بيهي! / لنعُد إلى موضوعنا: يستعمل شريف هذه الحجة الداروينية في إثبات السلف المشترك للإنسان، بل بصورتها العلموية التي رد عليها تومكينز أصلا، رغم أنهما ينتميان لنفس التوجه، وربما عذر شريف أنه ليس متخصصا في الجينات مثل تومكينز، وأن الأخير نشر بحوثه التي تبين عوار هذه النظرية خلال السنوات الأخيرة فقط، وكتاب شريف أقدم من هذا، أما ما هو ليس له بعذر، هو وصفه هذه النظرية المنقوضة بأنها (الدليل الدامغ) الذي أثبت أن (السلف المشترك حقيقة بيولوجية) = لذا يجب على القارئ تصحيح معلومة قد تبلبل فكره، عُرضِت بصورة مبهمة فأعطت انطباعا خاطئا، وهو أن تشابه عدد الكروموسومات بين المخلوقات مما يؤبه له في تلك القضية، والحق أن هذا غير صحيح، فمما يحمل نفس عدد كروموسومات الإنسان من

المخلوقات: الفأر الأسود، والخفاش الكبير منحني الجناح، والقندس الجبلي، وأحد أنواع الحمار الوحشي (جريفس زيبرا) / ومما يحمل نفس عدد كروموسومات الشيمبانزي: أرنب جاكرابيت، وفأر بيروميسكوس، بل وبعض ثمار النباتات! وكل هذا سهل لأقل شخص يجيد استعمال الإنترنت أن يجده ببحث سريع جدا في ثوان معدودة.

فهذا عن الحجاج العلمي بالتشابه العددي للكروموسومات، إلا أنه من الطريف أن د. شريف يستخدم مغالطة رجل القش فيهاجم أطروحة عجيبة ينسبها للنظريات الدينية عن الخلق؛ فيقول مُعقبا على تشابه جينات الفأر والإنسان: (ليس هناك تفسير لهذا التطابق إلا أن تكون هذه العناصر قد زُرعت وأن يكون ما أصابها من تشويه قد تم في السلف المشترك لكل من الإنسان والفأر ثم انتقل إلى كل منهما. هذا بالطبع إذا استبعدنا ما يقوله الكثير من الخلقويين من أن الخالق يتعمد خداعنا ليوهمنا بحدوث التطور ليختبر إيماننا!!) ولا أملك غير شهادتي أني ما قرأت بحثا محترما لمن يسميهم بالخلقويين يستخدم تلك الحجة!

والخلاصة: أن تعداد الكروموسومات ليس مما يستدل به على القرابة والسلف المشترك؛ فضلا عن أن يقال عنه دليلا دامغا، ومواقع التطوريين العرب تُقرُّ بأنه لا يمكن لمُستدل أن يحتج به منفردا، إذ لابد من رفقة المورفولوجيا وغيرها من معايير الفيلوجيني التي ناقشناها سابقها، وبيَّنا مشاكلها.

أما ثانيها، أي حجة التشابه على مستوى الجينوم نفسه، فيستخدم د. شريف الاحتجاج الشهير بأن جينات الإنسان والشيمبانزي تتماثلان في 99٪، وبالتالي يستدل بهذا على القرابة والسلف المشترك.

فنرد أولا بما ذكره هو نفسه في كتابه، إذ يقول: (قد ثبت أن هناك تطابقا بنسبة 100٪ بين أجزاء دنا الإنسان التي تشكل الجينات (العاملة والخاملة) وبين جينات الشمبانزي. وتصل النسبة إلى 99٪ مع جينات الكلاب والفئران و 75٪ مع الدجاج و60٪ مع ذبابة الفاكهة.. وإذا قارنا جينوم الإنسان مع الفأر وجدنا أن حجم الجينوم في كلا الكائنين متساو تقريبا. كذلك تتشابه الجينات (العاملة والخاملة) في كل منهما بمقدار 99٪) بل إنه يقول صراحة (الفوارق الأساسية بين الكائنات الحية لا تكمن في الجينات في المقام الأول)!

وهذا هو منهجه أحيانا، منهج التناقض، فهو يذكر مواطن عيوب الدليل وفسولة الاحتجاج به، ثم يستدل به بعدها، بل يتعصب له، ويعنون الفصول بتفخيم إياه بأعظم الألقاب الرنانة؛ وينهي كل ذلك بالهجوم على النظرية الإسلامية التي ترفضه!

وسأزيد القارئ تعريفا بما هو أكثر من تصريحات الدكتور:

ففي أحد معابد التطور العلمية، وهي مجلة الطبيعة Nature، سُرد بيان الفوارق بين جينوم الإنسان وجينوم القرد، وجاءت الاختلافات في حدود 35 مليون تباين على مستوى النيوكليوتيدات، و5 مليون موطن تغيُّر، ما يصفونه دوما بالإدخال والحذف (62)، مثل الحوت الذي عرفنا منه قبلا كيف أنهم يعتبرون الاختلافات الجينومية – بين الأنواع التي يعتبرونها قريبة – مجرد حوادث إدخال وحذف، لا وجود جينومي مستقل، فلابد من أن يكون جزيئي الجينوم في الحيوانين متماثلين أصلا، ثم جرى اشتقاق وتغيُّر / وهو تحيُّز مفهوم في إطار البراديم التطوري والفيلوجيني!

وقد وُجِدَت كذلك اختلافات ضخمة بينهما في الكروموسومات غير الجنسية autosomes؛ فالتماثلات تتراوح نسبتها بين 66٪ و 76٪ فقط، كما أن نسبة التشابه بين كروسوم X تبلغ 69٪ وفي كروموسوم Y تبلغ 43٪(63) / وهذه الاختلافات على مستوى تركيب الجينوم حُجة على محاولته التهرب مرة أخرى إلى الدنا المُهمل Junk DNA حين يتبنى فرضية تزعُم أنه قائد الجينات وموجهها، وسواء صحت هذه الفرضية أم لا، إلا أن الاستدلال بها في هذا الموضع لا فائدة منه، فالمطلوب إثباته هو ضعفُ دلالة التشابه على المستوى الجزيئي بين جينوم الكائنات في إثبات القرابة الفيلوجينية المزعومة، وكذلك إثبات وجود اختلافات معتبرة بين جينوم الإنسان وقريبه المزعوم الشيمبانزي / فمن الطرائف التي يؤدي لها مثل هذا الاستدلال، تلك الفرضية التي تقول إن الإنسان والكنغارو جاءا من سلف مشترك، بسبب التشابه على المستوى الجيني(64) !

لكن لنصحح بعضا من المعلومات حول الدنا المُهمل: في بداية العقد الأخير من القرن الماضي، عرف العلماء أن أغلب الدنا الخاص بنا، ما لا يقل عن 75٪، لا يساهم في وظائف مباشرة أو صناعة للبروتين، فسُمي هذا الجزء من الدنا بالنفاية Junk DNA، ومع التسعينيات دخل هذا الجزء في المعركة الدائرة بين التطورية الموجهة والخلقوية، وبين التطورية العلموية: فقد رفض الخلقويون أن يكون هناك خلق عبثي لأغلب الجينوم، وحاولوا عزو بعض المهام له، وفي الغالب كوَّن د. شريف معلوماته عن الدنا النفاية من كتابات هذه المرحلة تحديدا / أما في الجهة المقابلة، كان العلماء التطوريون الطبيعيون، حتى وإن اعترفوا بأن الدنا النفاية له بعض الوظائف، إلا أنهم أكدوا على عدم الاتفاق عليها، ثم حتى الوقت الحالي، انقسم

الاعتقاد العام بين مدرستين في تحديد وظيفته، الأولى تقول بأن 80٪ من الجينوم الإنساني له وظيفة بيولوجية، إذ توسع أهل تلك المدرسة في تعريف الوظائف البيولوجية، فاعتبروا أدنى تعريف للوظيفة، وأقل تحديد لها، كاف لاعتبار الجين فاعل = وبناء عليه قالوا بتلك النسبة / من الجهة الأخرى رفضت الجمهرة ذلك التوسع التعريفي، لخدمته الخلقوية بصورة أو بأخرى، أو حتى مجرد التأثر بها. والرأي الراجح تبنيه حاليا، أن أغلب الدنا الخاص بك هو نفاية، ناتجة من عملية التطور، لحدوث الأخطاء والتغيرات والتوقفات والفشل، وعليه يكون الوجود العبثي لهذا الكم الهائل من الجينات غير الوظيفية، عادي جدا بالنسبة لباراديم التطور، وغير ذلك يكون - عند التطوريين العلمويين الأقحاح - تحميلا للأمر ما لا يُطاق (65) (66)/ ولي تعليق على كل هذا:

أولا، أني لست مع التفسير التطوري للجزء مجهول الوظيفة من الدنا، أي تأويلهم وجوده أنه (نفاية لا وظيفة لها ناتجة عن عمليات التطور)، ويمكن بسهولة رؤية الخيط الرابط بين هذا الكلام، وبين حديثنا السابق عن الأعضاء الأثرية، فليس كل مجهول لابد أن أجد له موضعا وتأويلا بالنموذج التطوري!

ثانيا، أن الدكتور شريف مرة أخرى يخالف الرأي العلمي السائد في الأكاديميا الغربية التي يُحاكم الإسلام إليها، ويقول بأن المسلم الذي يؤمن بالخلق آثم في مخالفته إياها!

ثالثا، أنه حتى الطرف الذي يقول بالوظيفية لدنا النفاية، لا يُفخِّم فيه كما صنع الدكتور حين سماه (قائد الأوركسترا) والمسؤول الأول عن الجينات والاختلافات! تصور أن جزءا من الجينوم يدور الخلاف الحقيقي بين العلماء حول وجود وظيفة له

أم عدم الوجود، يعتقد قارئ كتاب د. شريف غير المطلع أنه الزعيم والقائد والدليل المُعظَّم المفدى القاهر الذي يقود الجينوم! صح هذا الفرض مستقبلا أم لا، ما يهمني هنا هو واقع النقاش العلمي الحقيقي، لا المزاعم المُخترعة! إن كنت تؤمن بالعلم والمجتمع العلمي وتتعصب له إلى درجة فرض تأويل القرآن ورد السنة ؛ فعلى الأقل التزم جديد هذه العلوم وتوصيفاتها المحددة ولا تأتنا بمزاعم بلاغية!

وبعد كل هذا التخبط والارتباك والتناقض، بين ما يقرره د. شريف من حقائق بالفعل، تُوهِن الاستدلال بالجينوم، إضافة بالتأكيد لكل ما ذكرناه في مطلع الفصل عن الفيلوجينوميك، يبدأ الجزء الثاني من المنهج، أي اعتبار هذا البناء المفكك حقائق مطلقة، وبناء سردية تطورية فوقه.

فيمضي د. شريف في سرد سيناريو لا تردد فيه عن كيفية تطور الشيمبانزي ليصير إنسانا، مستخدما الجينوم في نهايته، فيقول: (إلى جانب التغيرات في البنية وفي حجم المخ وتركيبه ووظائفه مر أسلافنا بتحولات عديدة أعانتهم على أن يتبنوا نمطا حياتيا جديدا .. لقد أدى استئناس النار منذ مليون سنة ثم الثورة الزراعية منذ 10000 سنة إلى التوصل إلى الأطعمة الغنية بالنشا وقد صحب ذلك حدوث تنشيط للجين AMY1 المسئول عن بناء إنزيم الأميلاز الموجود باللعاب ليسمح بهضم هذه الأطعمة التي استعاض بها الإنسان عن أكل الأعشاب الغنية بالسيليلوز كما تفعل باقي الثدييات) أما جين تكبير المخ فقد (تم تنشيطه في الإنسان) فجأة كي يصير إنسانا! ولا أجد ما أعلق به على هذه السردية المطمئنة!

وبعد كل ما سبق ورأيته طوال هذا الفصل، وذاك البيان لضعف الاستدلال بالجينوم، نختم بالتعليق الظريف الذي أغلق به د. شريف هذه المسرحية الجينومية، قائلا في

حزم مُضحِك: (أظهرت القراءة الأولى لجينوم الإنسان وجينوم غيره من الكائنات صدق مفهوم التطور ومفهوم السلف المشترك في نشأة الإنسان. وبذلك قدم علم البيولوجيا الجزئية الدليل الذي لا يُدحض في هذه القضية الشائكة)!

هذا هو الإقناع بحق! مزاعم غير ثابتة علميا، وبعضها نقضها التطوريون أنفسهم أو تجاوزوها، وتفخيم بلاغي لتلك المزاعم، وبناء سرديات كبرى كاملة فوقها، واعتراف متكرر بالاضطراب في استعمال الدليل = ثم نتاج كل تلك المهزلة أن تؤمن بهذه (الأدلة) التي لا تُناقَش ولا تُمسُّ بنقد!

إنني أدعو القارئ، في نهاية هذا الفصل الطويل، إلى البحث وإعادة قراءته مرات، للحكم بنفسه على هذه الأدلة (العلمية الصارمة) غير القابلة للنقد ولا التشكيك!

الفصل الثالث: الداروينية المتأسلمة والشريعة.

تمهيد.

استعرضنا في الفصلين الماضيين البارادايمات التطورية العلمية المحضة، والمتأسلمة منها، واستخداماتها، والردود عليها، والآن نبدأ في نقاش الدعاوى المتعرضة للشريعة، في كتاب د. عمرو شريف كيف بدأ الخلق تحديدا وخصصت لذلك القسم الأول من الفصل، ثم عرض كتاب د. عبد الصبور شاهين، وخصصت له القسم الثاني.

القسم الأول - الدعاوى المتعرضة للشريعة

1. دعوى مغايرة الإنسان للبشر.

تلك أولى المزاعم التي ينشرها جمهرة مؤسلمي الداروونية من مدرسة الدكتور عبد الصبور شاهين، وهي كعبة حجاجهم، وقبلة نقاشهم الشرعي، ومنها يبدؤون وإليها ينتهون، على ليونة بنيانها، ووهاء أساسها، فغفر الله لمن رأى في خيوط العنكبوت أحجارا!

وخلاصة هذا الزعم: أن الإنسان في الخطاب القرآني والشرعي مختلف عن البشر؛ إذ لما وجدوا أن الشريعة لم تتحدث سوى عن آدم وذريته، ولم تدع لمؤلِّف مجالا لدس خرافات الداروونية، أتى الشيخ شاهين بفذلكة عجيبة ونظرية هجينة تابعة عليها عمرو شريف، وسنعرض لها بتفصيل أكبر في غير هذا الموضع، خلاصتها أن الإنسان هو آدم، وأننا ذريته؛ فآدم هو أبو الإنسان، أما والدا آدم فهما نهاية البشرية القديمة، وبالتالي ينقسم تاريخ الوجود إلى قسمين، الأول هو الكائنات المتطورة التي سبقت الهوموسيبيان، وهي هنا البشر، والثاني هو الكائن المسمى بالهوموسيبيان، أي الإنسان / هذا هو النموذج الشاهيني للفرضية.

ولكن د. عمرو شريف أفتانا ولله الحمد والمنة بأن النموذج معكوس، وأن الإنسان هو الذي كان أولا، لا البشر، وأتى بالحجة الباهرة على هذا فقال: (لم يأمر الله الملائكة أن تسجد لإنسان، لكن لبشر سواه ونفخ فيه من روحه. على هذا يصبح البشر مرحلة تالية للإنسان لا يعلم الله مقدار الوقت بينهما) وجزم بهذا للآتي (يؤيد هذا الفهم أن

الله لم يطلق على أي من رسله وأنبيائه لفظ إنسان، بل تحدث عنهم دائما بلفظ بشر عبر عشرات الآيات القرآنية)! / وهذا هو النموذج الشريفي للفرضية.

قلنا أن القدر الأقل المشترك بين النموذجين: هو زعم ثبوت فرضية كون الإنسان غير البشر، وأن القرآن يدل على ذلك بعشرات الآيات، وعليه سيدور رد تلك الدعوى حول عرض الأدلة القرآنية التي تبين خطأها الظاهر، وشذوذها الجلي.

فمن هذه الأدلة مفتتح سورة العصر، إذ يُخاطب الله سبحانه وتعالى فيه بني آدم ويصفهم بالإنسانية، ثم يستثني منهم بعد المخاطبة = فإن قلنا أن هذا داعم للنموذج الشاهيني، إلا أنه داحض للنموذج الشريفي، فالخطاب للإنسان المُكلَّف، وهو يتحدث عن مخلوق موجود وقت الخطاب، ويُثبت الروح والعقل له، وكلها صفات لا تثبت للإنسان بحسب الفرضية الشريفية.

ولنتوجه إلى فرضية الدكتور شاهين، أن البشري هو المخلوق قبل الإنساني، غير المكلف، غير العاقل، فنورد من أدلة دحضها قول الله سبحانه وتعالى في سورة إبراهيم (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم)، فهذا مقول قول الأنبياء، في كتاب الله، يؤكدون أنهم من البشر، مثل باقي الناس كافة، وكذلك قول مريم عليها السلام (قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا)، فهذا كسالفه، ومثله آية سورة الأنبياء (هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) = فكل ذلك من باب واحد، وهو التعبير عن بني آدم بلفظ البشر، من جانب بشر آخرين، أنبياء وغير أنبياء، في القرآن الكريم.

أما المقول من جانب الله سبحانه وتعالى، وفيه استخدام لفظ البشر في توصيف بني آدم العاقل المكلف، فمنه قول العزيز الجليل في سورة المائدة (قالت اليهود والنصارى

نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يُعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق)، وأظهر الأدلة هو قوله في مبدأ خلق آدم بسورة ص (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين) = فأي ملاحاة بعد تسمية الله سبحانه وتعالى الآدمي المكلف العاقل بشرا؟ فهذا انقشاع كهام الفرضية الأولى.

أما الفرضية الثانية، أن الإنسان هو المخلوق قبل البشري، غير المكلف، غير العاقل، فمن أدلة إسقاطها آية الزُمر (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا .. وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله .. قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) = ففي هذه الآية خطاب لبني آدم بالإنسانية، وتوصيف أحوالهم في الطاعة والعصيان، ووعيد للمسيء منهم بالنار، وهذا كله مثبت للتكليف، وهو ممتنع عن الإنسان عند د. شريف كما ذكرنا.

ومن ذلك آيتا الإسراء (ويدعُ الإنسان بالشر دعاءه بالخير) و(كل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) = فهاتين كأسلافهما من الخطاب والتكليف والوعيد إضافة إلى التعميم على الإنسانية.

ومنها آيات مريم (ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا. أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يكُ شيئا. فوربك لنحشرنهم والشياطين) وكذلك آية الأحقاف (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا) = ففيها حكاية قول الإنسان الكفر والنُكر، دلالة العقل والتكليف، وتذكيره بأنه مخلوق من عدم، وتوصيته، ووعيده بالحشر والحساب.

وعلى هذا النسيج الكثير من الآيات الأخر، منها قوله سبحانه وتعالى (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر)، وكذلك (أيحسب الإنسان أن يترك سُدى) وكذلك (يقول الإنسان يومئذ أين المفر).

وآخر الأدلة، قوله سبحانه في سورة التين (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) وهي كالشمس يوم طلوعها بالأسعُد في تبديد أوهام الفرضية الداروينية بالنمط المقول من د. شريف.

وفي هذا الجمع من الآيات ما يؤكد على أن الإنسان هو المخلوق الآدمي الحالي العاقل المكلف المُحاسب، وليس هو الكائنات غير العاقلة المزعوم أنها أسلاف البشر، وأن الإنسان والبشر مترادفان في الدلالة على آدم وذريته، وأن دعاوى الانفصال من أسقط المزاعم في تلك القضية، فما بال قضية يكون أهم مزاعمها بهذا الوهاء، وأكبر أسسها بهذا النزول.

2. دعوى نفي العقل عن غير بني آدم.

هذه ثاني الأسس الجوهرية لنظرية الداروينية المتأسلمة، أي نفي العقل عن باقي المخلوقات غير الآدمية، والهدف من ذلك جلي، إذ لابد من تعيين حد واضح مقبول يفصل الآدمي عن غيره، ولما كانت الحدود المورفولوجية والجينية لا تصلح في حجاج شرعي المسلك، اتخذوا من فرضية الثنائية العقلية مبدءا، أي الإيمان بأن المخلوقات في علاقتها بالعقل ذوات صورتين: إما عاقلة، وإما غير عاقلة، وقد بُني حجاج د. شاهين ود. شريف على هذا، فالآدمي عند د. شاهين (تألقت فيه) فجأة الصفات العقلية الممنوحة من الله سبحانه، فارتفع عن رتبة البهيمية بمفاجأة تاريخية، وإنالة إلهية؛ أما عند د. شريف، فالتطور متدرج من كائن بهيمي غير عاقل، يرتفع تدريجيا بازدياد حجم المخ إلى مرتبة الإنسان العاقل، وهو هنا ينقل بالحرف من الداروينية بلا إضافة تستحق الذكر.

ونقض هذه الدعوى من وجهين:

أولها، أن العقل المذكور في الآيات القرآنية، هو درجة سامية، قادرة على حمل التكاليف والمهمات، وليس معناها أبدا نفي مُطلق العقل عن باقي المخلوقات، ودليل هذا حديث المفسرين في آية (إن هم كالأنعام بل أضل سبيلا) عن ارتقاء الأنعام في العقل حينها عن البشر الكافرين، إذ هي أهدى لمعرفة ربها منهم، وجاء عند ابن كثير والقرطبي تصريح بدلالة الآية على أن الأنعام عاقلة، وإن تدنت مرتبة عن العاقلين المؤمنين؛ وفي الحديث أن الأنعام تُحشر للمحاسبة على صيال بعضها على بعض، ومعروف أن لا حساب دون عقل ولو تدنت مرتبته، ليميز جائر الأفعال من عادلها.

وقد يُقال بأن هذا النفي للعقلانية لا يعني نفي العقل المُطلق، بل هو نفي العقل السامي المُشرَّف = فنقول بأن هذا ليس موجودا في كتابات الداروينية المتأسلمة، بل هم يصرون على قسمة ثنائية، إما عقل أو لا عقل، لا طيفا متصلا كما نقول، وهو أحادي الاتجاه، وليس مرتبطا بقبول عبء التكليف، وبعقلِ شرف الاستخلاف.

ومن المدهش أن مذهبهم هذا ناء عن الالتزام الحق بالداروينية، إذ أن التطوريين لا يرون الكائنات إلا في إطار سلسال متصل، لا مزية غير طبيعية للإنسان فيه، ولا (تألق) لصفات مفاجئة، وإن لم يجدوا مفرا من الاعتراف بأن مخه متميز عن أمثاله، لكنه في النهاية حيوان من جملة الحيوانات، بل هو، عند بعضهم، خاصة أنصار الإيكولوجية، أفسدهم وأكثرهم اجتراء على الطبيعة، فالمخلوقات ذوات عقل أحرص على الحياة والتنوع، وألصق بالطبيعة ومنهجها، مقارنة بالإنسان الكائن المدمر، أحطّ مخلوقات الأرض وأكثرها انعداما للمسؤولية والعقلانية، إذ أنه يدمر عالمه، ويستهلك موارد حياته شرها، وبلا منطق!

وأهل الطبيعة وأهل الشريعة متفقون على أن هذه المخلوقات أمم أمثالنا، كما ورد في القرآن، وأن لهم منطقهم، ومبادئهم، وخباياهم، وصفات خاصة، وأنهم يشتركون في وجود العقل، ويتفاوتون في إمكان الاستنباط منه، على خلاف في مراتب التعقيد.

وثاني الأوجه، أن أمم المخلوقات، بامتلاكها العقل، تمتلك مبادئ التنظيم الاجتماعي، وأسس التفكير والمعرفة التي تتفاوت بينها، وبحسب مفهوم المجتمع نفسه بين كائن وآخر، إذ أن الصرصور مفهوم المجتمع عنده لا علاقة له بمفهوم المجتمع عند النمل، والأسد يختلف مفهوم مجتمعه عن مفهوم مجتمع الغوريللا.

ودلالة هذا من الشرع، نملة سليمان، التي خاطبت قومها، إذ أنها امتلكت القدرة على معرفة أن هذا الحشد جند، وأن هذا الجند تابع لنبي ملك اسمه سليمان، وأن وجهته ستُفني أمتها من النمل، فخاطبت وحذرت، ووجهت وأنقذت = فكيف يُقال عن هذه أنها بلا عقل مُطلقا؟ / وإن قيل بأن بعض المفسرين رأى أن هذه نملة متفردة بالعقل والهداية، وأن غيرها من النمل ليس كذلك، قلنا أن هذا لا يُسلَّم، فقد خاطبت غيرها، ولو لم يكن قومها لها سامعين فاهمين ما كان لها سوى النجاء وتركهم للهلكة - ومثله إنكار الهدهد لكفر السبئيين.

وقد كُرِّم سليمان عليه السلام بتعلم منطق الطير، فكان يخاطبها ويحاورها؛ فأي دلالة على العقل أكثر من وجود اللغة؟

فإذا كان قد ثبت بالعلم والشرع أن المخلوقات الأخرى أمم، ولها منطق عام، ومبادئ عقلانية ومعرفية تتفاوت بينها، ولغات قومية خاصة = فما وجه الإصرار على أن الإنسان نقيض في مَلَكة العقل لباقي المخلوقات، وأن غير الإنسان كائنات همل لا عقل لها؟ الوجه لدى مسلمي الدراونة معروف، إذ أنهم ألزموا أنفسهم بالتفرقة بين

نوعين من بني آدم، ويجب على النوع السالف منهما أن ينتفي عنه العقل، وعلى النوع الثاني أن يُعتبر معجزة خاصة!

لكننا نقول: سلمنا بالتطور، وأن أسلاف آدم كانوا مجموعة من الحيوانات = فمجموع العلم والدين معا لا يُقرُّ أنها حيوانات معدومة العقل، ولا مسلوبة الأممية، ولا فاقدة اللغة، ولا محرومة المنطق! فحتى إذا كانت هذه مجموعات من القردة = فالله سبحانه وتعالى ملّكها العقل واللغة والمنطق، وسينتصف لمظلومها يوم القيامة!

فالعقل المُطلق غير منتف عن غير بني آدم، لكن منطقهم الأعوج ألزمهم بذلك، ومن اللطيف أنهم في هذا لا هم التزموا بلواء الشرع، ولا انضموا للواء العلم، فكان العلم والشرع في واد، والدراونة المسلمون في واد.

3. مزاعم خلق حواء.

يزعم مسلمو الدراونة أن حواء جاءت نتاج تطور طبيعي، وهم أصرح في الجهر بمعتقدهم أن نمطها في الحياة ألصق بالتطور الطبيعي من الآدمي، فيسرد لنا د. شريف مثلا كيف تطور هذا المخلوق قائلا: (نشأ مجتمع القنص والجمع الذي يقوم فيه الرجال بالصيد والإناث بجمع الأغذية النباتية وهو أسلوب المعيشة الذي استمر ما يزيد عن مليوني سنة، وأمكن ذلك تكوين الأسرة وتماسكها وساعد على هذا قبول أنثى الإنسان ممارسة الجنس في أي وقت على عكس غيرها من الثدييات التي لا تقبل الجنس إلا عند التبويض أحيانا مرة كل ستة أشهر، وقد صاحب ذلك اختلاف أسلوب الممارسة الجنسية عن باقي الثدييات أصبح وجها لوجه). فهذه هي حواء عند أولئك الناس، من سلالة قردة، وقد تغير نمطها الجنسي تماما ما جعلها صالحة لبدء

التكاثر بالطريقة المعلومة لنا اليوم، وقد يُقال أن آدم هو الآخر مذكور في النص، لكننا نُنبه أن الفرضيات الدارونية المتأسلمة تُعطي لآدم وحده فرادة خاصة، سواء في العقل أو التركيب والتكوين، وتفصله عما عداه من المخلوقات، إذ هذا هو حلهم لتفسير سبب تخصيصه بالتوصيف القرآني المفصل لخلقه، ولا يُقال لم لا تكون حواء مثله، إذ أنهم لما امتنعوا عن القول بغير ميلاد آدم من أبوين؛ كان من الأولى أن حواء هي الأخرى مولودة من أبوين ولا فرادة لها من أي وجه، فهي من سلالة قردة حتما، ولا تخصيص لها مقارنة بمخصصات آدم.

والرد على هذا بدليلين - وما أكثر الأدلة ! - أولهما آية الزمر (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها)، وثانيهما حديث النبي المتفق عليه في الوصية بالنساء، وفيه (إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه؛ فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج؛ فاستوصوا بالنساء).

ومن جمع هذين الدليلين، نستنتج الآتي في رد هذه الفرية:

أولا، إخبار القرآن ببدء الخلق الإنساني من نفس واحدة، ثم كان من هذه النفس زوجها، وبها افتُتِحت العملية الجنسية البادئة للتاريخ البشري. ولو لم تكن هذه هي العملية الافتتاحية، ما كان ليوجد معنى لزواج ابني آدم من الأخوات، إذ أن الإناث في هذه الحالة، التي يصفها د. شريف بالمجتمع، هن موجودات، ولا يختلفن كثيرا عن الأم حواء، لأن الأم لا فرادة فيها، ولا خصوصية لها، وبالتالي كان على أبناء آدم الزواج من الإناث الأخريات المتوفرات بكثرة، وما كانت قصص قابيل وهابيل وغيرها من قواعد ابتداء الخلق التي تروي قصة عن فردين يعيشان في انفراد وعزلة!

وأين المجتمع المزعوم الذي يروي د. شريف أنه موجود من قبل خلق آدم بملايين الأعوام؟ أم أن آدم عندما نضج وكبر هجر أبويه وأهله ومجتمعه؟ أم أنه فارق مجتمعه وأهله فور ولادته؟

ثانيا، اجتماع أمة محمد كابرا عن كابر، بلا مخالفة واحدة، أن حديث خلق حواء من ضلع آدم هو على ظاهره، وليس مؤولا ولا مجازا، فهي مخلوقة من ضلعه حقا وصدقا، وعليه فهي متفردة عن باقي المخلوقات بنظام فسيولوجي ومورفولوجي جديد، ومن فرادتها أسلوب التكاثر عندها، ولا اعتبار بخيالات الدراونة الغريبة!

وخلق حواء من أضخم معضلات نموذجهم الأخرق، وحكاياتهم الطريفة، لكن من العجب أن أكثرهم لم يعره اهتماما، فمر عليه دون تحقيق، مع أنه مثير للأسئلة وناقض للنموذج من جذوره، إذ ما وجه تخصيص آدم بمكرُمةِ العقلِ عن أسلافه الهمج، بينما حواء هي الأخرى كائن عاقل من أسلاف همج؟!

4. دعوى التراخي.

ومفاد هذه الدعوى، أن حرف العطف (ثم) الذي جاء في آية سورة المؤمنون (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ❖ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين)، ما دام قد جاء في اللغة إفادته التراخي، وعدم الفورية، فبالتالي تمتد هذه الدلالة حتى يصبح المقصود بالتراخي ملايين السنين، فيصبح محتوى الآية الأولي، هو الحديث عن مليارى سنة مثلا من مليارات الأرض الأربعة التي يُقدر بها عمرها، وفيها تظهر العناصر الأولى، والمكونات الأولية، ثم الخلية الأولى، ثم الكائنات متعددة الخلايا، صعودا إلى مخلوقات ما قبل آدم، ويكون محتوى الآية الثانية مجرد خلق آدم من

النُّطَف / ويصول الدراونة ويجولون حول (ثم) هذه، ويعتبرونها من الفوارق الحاسمة في خطابهم.

والرد على هذا بدليلين:

أولهما، أن ثم قد جاءت في آية الزمر، في قول الله سبحانه (ثم جعل منها زوجها)، ولم تعنِ عندكم أبدا أن حواء قد تلت آدم في الوجود، بل كانت موجودة معه، وليست خارجة منه، تالية عليه، وبالطبع لم تأتِ بمعنى مليارات أو ملايين أو حتى ألوف السنين، وأنتم ترفضون هذا.

وثانيهما، أن أداة العطف هذه قد جاءت في آية آل عمران (إن مثل عيسى عند الله كمثَل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)، وأنتم متفقون معنا أن عيسى □ الذي ذُكِرَ لبيان التماثل - لم يأتِ بعد ملايين أو مليارات السنين، ولم تكن ثم تعني هنا سوى اللحظة بين الخلق، وأمر الكينونة، فما بالكم تقولون بل (ثم) تعني لآدم مليار سنة، و(ثم) تعني لعيسى لحظة واحدة، أو تسعة أشهر؟!

وفي هذه الآية دليل يدحض كافة هذه الدعاوى جملة، وننهي به هذا الفصل، وهو أن وجه مثلية عيسى لآدم في الآية، كان في الخلق من غير أبوين، على وجه خاص مُعجِز، لا مثيل له في الطبيعة، وهو خلق لا يُماثل خلق الأنبياء وغير الأنبياء من غيرهما، إذ ولدوا وجاؤوا إلى الدنيا من إنجاب طبيعي، وفي مخالفة هذا كان وجه التماثل والإعجاز / فكيف يُقال أن آدم قد خُلق من أبوين، بصورة طبيعية، ولا إعجاز فيها؟ ما وجه المماثلة بينهما أصلا غير ذلك؟ وإن قيل أن وجه المماثلة هو في الخلق من التراب، وكلنا مخلوقون من تراب = قلنا: لو سلمنا لكون هذا اعتراضا من الأصل

- على تكلفه وبروده - لحق عليكم أن تجيبونا: ما وجه التمثيل بآدم خاصة، دون باقي البشر والأنبياء، والسياق كله ليس له بآدم أدنى صلة؟

فهذا تمام القول في الرد الشرعي على أهم المحاور التي يعرضها الدراونة المسلمون.

القسم الثاني - عودة إلى منبع الخطاب الشرعي للدارونية المتأسلمة

(كتاب أبي آدم)

يحتاج جمهرة أنصار الدارونية المتأسلمة إلى خطاب شرعي يتكئون عليه؛ إذ أنهم ضعاف في الشريعة عامة، كما رأينا في الفصل الأول، في قول قائلهم إنا مُرجئو التأويل إلى من يقدر عليه مستقبلا!

وتتنوع مصادر الخطاب بحسب الشيخ الذي ينهل منه الداروني، فتارة هو عدنان إبراهيم، وهذا يُلتجأ إليه من أخس الدراونة في معرفة الشرع، إذ أن الرجل معروف بالشطح والنطح والهوس بالإغراب، وتارة هو شيخ أرفع مكانة، وليس في هذا الصنف - عند من يعرفون أقدار الناس - من هو أعلى كعبا من الشيخ عبد الصبور شاهين رحمه الله.

والشيخ كان من علماء اللغة، وأعيان الشريعة، وقد أفنى حياته في تأجيج نيران الكراهية ضد اليهود الإسرائيليين، وبيان إفسادهم، وإذاعة مخازي العلمانيين، وفضح وهاء حجاجهم؛ إلا أنه قد أصيب في نهاية عمره بمثلبة، نسأل الله له أن يتجاوز عنها برحمته وحسن نيته وجميل بلائه في السابق، ألا وهي إضفائه شرعية لخطاب الدارونية المتأسلمة، وأزعم أنه لم يقصد ذلك الهدف السيء - وسترى بيان ذلك في قادم الورقات - بل كان يتحرى مواضع قطرات سم اليهود في حاضرنا، وفي أفكارنا، وفي تراثنا، فتوجه إلى الإسرائيليات، واشتط في التنديد بها، وكان من المتأثرين بنظريات المؤامرة اليهودية العالمية، والتي كانت في أوج قوتها بالثمانينيات والتسعينيات بمصر، فاعتبر كل تشابه مع المنسوبات إلى أهل الكتاب من أخبار،

والمرويات من اليهود في التفاسير، هو جزء من مؤامرة تاريخية دبرها أعداء الله والمسلمين، لإفساد هذا الدين من الداخل، فهذا دأب اليهود، ومذهبهم الذي به يتدينون، وبالتالي ليست مؤامراتهم المعاصرة، ورأسها الأفعى الإسرائيلية، إلا استمرار المؤامرة التاريخية التي ابتغوا بها تحريف هذا الدين، وإضلال أهله.

يقول الشيخ في مستهل كتابه الذي هو موضع نقاشنا: (الهدف هو انتزاع العقل المسلم من براثن النقول الإسرائيلية المحشوة بالخرافات المنافية لكل ما هو عقل وعلم ونور) ويقول في مقدمة الطبعة الثانية: (أما الكتاب فقد كان صخرة أردت أن أدق بها رأس الأفعى الإسرائيلية اللابدة في الثقافة الإسلامية القديمة، ممثلة فيما سمي بالإسرائيليات، وهي لا تعدو أن تكون أساطير خرافية تسلت إلى الفكر الإسلامي.. وهي في الواقع أفعى إسرائيلية اعتنقها كثير من الرجال ممن لم يُعملوا عقولهم في تحليل نصوص القرآن، وممن لم يشعروا بالصدمة حين اتضحت من الأرقام المسافة الزمنية الهائلة بين معطيات الخرافة وتقديرات العلم.. لقد خنقت الأفعى أفهامهم حين طوقت أعناقهم).

ويقول في موضع آخر (لابد أن نلتفت أمامنا الآن. فنحن في مواجهة غارة إسرائيلية تحاول استخدام كل الوسائل لتخريب العقل المسلم المعاصر، وهي لا تكف عن ترديد الأساطير في محاولة لزعزعة يقيننا بأنفسنا.. أكثر من هذا لا يملكون دليلا واحدا على اتصال نسبهم بإسرائيل، أو بني إسرائيل؛ فهم مجرد لملمة تناثرت في العالم قبل عشرات القرون وتجمعت في شكل مجموعات من الشذاذ لتحقيق خطة استعمارية هي ضرب الإسلام بواسطة هذه الجيوش المرتزقة. والعجيب أنهم يسطون على التراث الإسلامي ليؤلفوا ملحمة إسرائيلية تتكامل مع العهد القديم ليبنوا لأنفسهم وجودا ثقافيا مؤثرا في العقل المسلم وتاريخه).

فعلى كافة المسلمين التعاضد مواجهة لإسرائيل (إننا نرى لزاما علينا أن نجاهد تلك الغارة الإسرائيلية على قلب عالمنا العربي في فلسطين، نجاهدها ماديا وأدبيا، نجاهدها إستيطانا واحتلالا وتأثيرا فكريا وإعلاميا وسياسيا واقتصاديا. لابد أن نقضي على هؤلاء الغزاة قبل أن يقضوا علينا. فقد جاءوا إلى بلادنا قاتلين أو مقتولين. وسنكون نحن قاتليهم وسيكونون هم المقتولين بمشيئة الله حتى نسوقهم إلى حصير جهنم).

بذا يوضِّح الشيخ حدود مرماه، وهو كل أثر إسرائيلي يهودي خبيث، سواء في الواقع، أو في الكتب، حاضرا وماضيا ومستقبلا، وكل ما يُشكُّ أنه مُس من أيد يهودية، يجب أن يُطهَّر، لا بالماء بارد، بل بالحرق والكي.

وهذا كلام طيِّب في ظاهره – على غلوه الواضح – إلا أنك لابد قد انتبهت للازم ذلك، والذي صُرِّح به في كلامه، ألا وهو الطعن فيمن قال بمثل قول بني إسرائيل من أهل السنة في شيء، واتهامه في عقله، وسيتضح بعد ذلك أن الشيخ يتجه بهذا الكلام إلى من يؤمن بأن آدم هو أول البشر، ومفتتح الوجود الإنساني = فهذا في رأيه ليس أكثر من تأثّر بالمزاعم الإسرائيلية وانهزامية أمامها!

وسأعرض هنا أهم المواضع التي تستحق النقاش في كتابه، ما يُحيط به، ويبين عواره، ولا يخرج عن الإيجاز.، لكن يلزم تمهيدا، وقبل الدخول في الكتاب، أن نُقرر رفض الشيخ الإيمان بالنظرية التطورية المُتعارف عليها! فللشيخ نظريته الخاصة، والتي أكاد أجزم أن جمهرة المستشهدين به لم يطلعوا عليها، إذ لو فعلوا، لولوا منه فرارا، ولملئوا من العزو إليها رُعبا!

يقول الشيخ بعد استعراض آراء بعض العلماء (الأقرب إلى المنطق هو أن القدرة التي خلقت نوع القردة التي تمشي على أربع قد خلقت نوعا آخر يمشي منتصبا على رجلين

وهو الإنسان، وهي القدرة التي أوجدت ملايين الأنواع من المخلوقات المتحركة لكل نوع عالمه وقدراته وبدايته ونهايته فالكل صادر عن قدرة مطلقة واحدة). فهو هنا يُنكِر أبجديات الباراديم التطوري، الذي من أجله خُلِق أصلا: وهو تفسير تنوع المخلوقات، بقدرة الطبيعة، لا بقدرة الله.

ثم يقول تعليقا على صورة لحفرية القردة لوسي (لوسي حطمت النظرية الدارونية)!

ثم يُصرِّح بأجلى عبارة: (غني عن البيان أن كل الجهود العلمية حتى الآن تنصب على معارضة داروين فيما ذهب إليه، وأن ما قدمناه لم يكن سوى بعض العينات التي جهد فيها العلماء ليدحضوا مذهب النشوء والارتقاء. حتى إننا نستطيع أن نقول إن نظرية داروين قد صارت لكثرة ما تعرضت له من نقد مجرد مقولة هشة لا تعني شيئا في مجال البحث عن أصل الإنسان وإن قدمت الكثير في مجال البيولوجيا أو علم الأحياء.. لقد سقطت إذن فكرة التطور الخالق ونقول فكرة ولا نقول نظرية، ورغم أن الناس قد فُتنوا بهذه النظرية لعدة عقود من الزمن. سقطت بكل ما ارتبط بها من أفكار أخرى وانتصرت حقيقة الخلق المستقل التي قررها الدين كما أكدها العلم؛ فما كان الإنسان إلا بشرا منذ كان وما كان القرد إلا قردا وما كانت السمكة إلا سمكة في عالمها المائي)!

أحسب أن مثل هذا الكلام مجهول عند أنصار الشيخ ممن يحسبون رؤيته تصلح سندا شرعيا لهم، فإن رفعنا عنهم الجهالة؛ قلنا إنهم يكتمون هذا الجزء من كتابه؛ مع أنه يُجلي رفضه نظرية التطور الداروينى (السلف المشترك) تماما لأسباب عقلانية منطقية ودينية متعلقة بقدرة الخالق، فهو من هذا المنطلق لا يخرج عن كلام أهل السنة، ولا يجتمع مع الدراونة في أصول النموذج.

وهذا ما يجب معرفته من أنصاره، وأعدائه معا.

أما تحقيق هذا الكلام من الناحية العلمية: فهو يُثبت يقينا شسع الفلاة التي فصلت الشيخ رحمه الله عن حقول العلوم الطبيعية، بكافة أفرعها، وعدم معرفته بأجوائها، ولا بمظان تحقيق أدنى الأقوال فيها، ولا إدراك أبسط أبجدياتها، ولا اقتداره على تحرير أيسر مبادئها! فأي نظرية تلك التي سقطت في الغرب؟! أيعترف المجتمع العلمي الرسمي في أكاديميات الغرب بغيرها طوال قرن ونصف من الزمان؟ لكننا نعلم أن الشيخ كان يردد ما قيل من بعض أقطاب الإسلاميين وأهل الشريعة حينها، وترددهم أن النظرية قد سقطت وانهارت، ولعلهم خُدِعوا بحقبة الثمانينيات، وبظهور اتجاهات معارضة لها، وعلو صوتها، فظنوا أن هذا الصوت المرتفع يعني انهيارها، أما الحق، أن تلك الحقبة، كانت عصر الثورة المضادة المحافظة في الغرب، والتي تلت عصر الثورة الجنسية والثورات اللوطية والنسوية وغيرها، فصُبِغت الثمانينيات، خاصة في أمريكا، بصبغة بعث ديني على استحياء، هدأ من شطط الثورات العلمانية المتطرفة التي صبغت السبعينيات، وفيها بدأ نقد الدارونية يتماسك، خاصة مع الانتباه الداروني إلى أن توالي المكتشفات، كان يزيد البراديم اضطرابا، لا العكس، ووصل هذا البعث الديني لعلم الأحياء التوراتي إلى ذروته، بإنشاء معهد ديسكفري الأمريكي في مطلع التسعينيات، وقيادته النشاط المعارض للدارونية على مستوى العالم = فأحسب أن بعض رموز الإسلاميين لم ينتبهوا إلى السياق الكامل حينها، ولم يُبصروا حدود الصورة، وهم معذورون، إذ أن المعرفة حينها كانت أصعب في التنقل والوصول إلينا، والنزاع الغربي الغربي الحديث كان شبه مجهول للثقافة العربية عامة، التي كانت متوقفة عند حدود النزاع الشيوعي الرأسمالي، ولم تكن تعلم مدى اتساع هذه النزاعات وتشعبها وتطوراتها الهائلة؛ بالتالي سادت رؤية تعتقد

مثلا أن بعث الأفكار الدينية في الغرب، يعني سقوط العلمانية إلى الأبد / أو أن صعود نشاط غربي معارض للتطور، يعني اعتراض الغربيين كافة عليه وسقوط التطور أبدا. فإن نظرت إلى الأمر من تلك الجهة، ألِف قلبك الإعذار في تلك المساءة، وإن وجب علينا بقدر احترامنا لجهد أولئك العاملين للإسلام، أن نعترف بغياب الصورة الحقيقية عنهم، كما يغيب الكثير من واقعنا الحالي عن فهومنا، فلهم الحُسنى بقدر بلائهم، ولنا الاستمرار في طريقهم، بتصويب ما زلوا فيه، عاذرين لا مشنعين أو مُسقطين أو ساخرين، كما يصنع بعض الحمقى اليوم، ممن يحسبون أنهم بتسديد السهام على تلك الأمة من الناس، التي عانت وابتُليت بما لا يُطاق، واقتصرت معارفهم على قصاصات ولفافات لم يجدوا غيرها؛ فسيصبح واحدهم كهف العلم، ومُرتضى الناس أجمعين، وأولهم العلمانيين وخصوم الشريعة! وهذا من جهله، وسوء فهمه لما فقهه أصغر أظافر هؤلاء الناس؛ وفي هذا لن يفوقهم أبدا! وأنا لا أقصد بكلامي أولئك الذين انطلقوا من الشريعة، ثم ضلوا وأضلوا، فتعلمنوا وصاروا أداة تخريب من داخل الدين، باسم الدين، فلأولئك التروس والمجانيق!

والآن، لنُحرر نظرية الشيخ، فنقول ابتداء أنها هجين عجيب مُشوَّه من نظرية الخلق الإسلامية، مع بعض نظرية التطور!

يقول الشيخ (لقد خلق الله البشر أطفالا أو كالأطفال بلا أسماع ولا أبصار ولا عقول، ثم جعل لهم هذه الأدوات في مراحل التسوية المتطاولة حين شاءت القدرة أن تزود هذا المخلوق البشري بما يحتاج إليه من أدوات الكمال).

ويقول في شرح الآية الواضحة (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) والتي تثبت وحدة الأصل من آدم وحواء: (إن هذا البيان الإلهي نداء إلى جميع الناس يذكرهم بوحدة الأصل؛ فهم جميعا قد نسلوا من ذكر وأنثى هما آدم وزوجه حواء

باعتبارهما أول من تألقت فيه صفات الإنسان من سلالات البشر، ولا التفات إلى ما سبقهما من السلالات والأجيال).

ويقول (لقد كان البشر خلال الأحقاب والعهود المتطاولة مجرد مخلوقات متحركة حيوانية السلوك ولكنها تزداد في كل مرحلة تعديلا في سلوكها ونضجا في خبراتها وتلونا في طرائق التفاهم اللغوي بينها) ويقول (لقد كانت ملحمة هائلة!! تلك التي استغرقها خلق البشر وتسويته وتزويده بالملكات العليا التي أصبح بها إنسانا تتألق فيه كمالات النبوة فاختاره الله واصطفاه كما قال {إن الله اصطفى آدم} فصار آدم نبيا.. ولقد استغرقت هذه الملحمة كما سبق أن قلنا ملايين السنين ولكنها مرت ظلاما في ظلام أو غيبا في غيب حتى أذِن الله للصبح أن ينبلج فأشرق الإنسان من سلالة البشر واكتمل الخلق وجاء آدم!! ليس غريبا أن نتصور بناء على هذا أن آدم جاء مولودا لأبوين وأن حواء جاءت كذلك على الرغم مما سوف يلقى هذا التصور من معارضة تلقائية ورفض عنيف!! وبلا تفكير!! إن هذا التصور لا يتصادم في رأينا مع حقيقة خلق الإنسان من طين، ذلك أن الخلق الذي بدأ منذ ملايين السنين بالجسد الطيني كان هدفه النهائي والوحيد خلق آدم).

إذن تصور الشيخ للخلق يمكن إجماله في النقاط الآتية:

1) أن الكائنات كلها قد خُلقَت خلقا خاصا، القرد قرد والزاحف زاحف، ولا أسلاف مشتركة، وبالتالي نظرية داروين ساقطة وخرافة، وقد هجرها العالم!

2) أن هناك كائنا قد خُلِق بخلق خاص من الصلصال هو البشر: وهو شبه إنسان بلا عقل ولا سمع ولا بصر!

3) ثم ظل هذا الكائن البشري يتطور عبر ملايين السنين، إلى أن انتهت مرحلة التطور، بأن أنجب أب وأم من البشر مخلوقا هو (آدم)؛ وقد اصطفاه الله بالنبوة والتكليف، وجعله أبا الإنسان، ثم تزوج امرأة هي حواء التي كان لها هي الأخرى أب وأم وقد (تألقّت!!) فيها وزوجها صفات الإنسان!

4) من هنا بدأ عصر الإنسان المُكلَّف وانتهى عصر البشر الهمجيين.

ولنسأل أولا كافة القراء، مناصرهم ومعارضهم: مَن مِن علماء التطور يقول بهذا؟! أو يقول بربعه حتى؟! التطوريون الطبيعيون الماديون أم التطوريون الإلهيون أم الخلقويون؟! من يقول بهذا؟!

إن نظرية الشيخ ترفض التطور في غير الإنسان، وترفض السلف المشترك / فكيف كان يظنها ستوفق بين العلم والدين؟ قد تقول لنفسك: ربما لأن الشيخ رحمه الله كان يتصور أن النظرية التطورية قد سقطت / لكن إن كانت قد سقطت؛ فلم سعى لأسلمتها بهذه الرواية الخيالية؟!

ثم ما معنى (التألُّق) هذا الذي حكى عنه الشيخ وما موضعه في العلم؟ وإن كان آدم عليه السلام هو الذي جرت عليه خطوات الاصطفاء فالتعليم ثم الانتقال إلى مرحلة الإنسانية – فكيف حال حواء؟ لقد نسي الشيخ رحمه الله أنه بتفسيره هذا قد جعل حواء – التي لم تكن موضع العمل الإلهي المذكور قرآنيا والذي أكد عليه كثيرا – مجرد ابنة بشرية همجية لبشريين همجيين وقد تزوجت النبي آدم الذي كُلِّف من الله! طبعا ناهيك عن مواجهة ذلك لحديث النبي عن خلق حواء من ضلع أعوج وهو ما أوله الشيخ ونسبه للمجاز!

ثم أن الشيخ قد نسي؛ وهو الذي يؤمن مثلنا بأممية المخلوقات والحيوانات وتمتعها بالعقل وأفرد لذلك موضعا في كتابه، أنه قد جعل بذلك في الأرض ذات لحظة أمما من الكائنات والمخلوقات تعقل كلها، طيور وزواحف وقردة -إلا الكائن البشري الهمجي!!

ثم يمضي الشيخ في سرد طويل وجديد لقصة الخلق اضطر فيه لتقديم تأويلات ظاهرة الضعف والركاكة مثلما فعل مع أقوال الملائكة وكون قابيل أول القاتلين فيقول عن هذه الحادثة (لم يكن قتل قابيل لهابيل إلا استئنافا لسفك الدماء في العهد الإنساني)! ثم يقول بعدها تعليقا عن حديث النبي الصحيح في البخاري والنسائي (لا تُقتَل نفس ظلما، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل) التعليق الآتي: (يشير أيضا إلى موضع ذلك الجرم من المسئولية فقبل ارتكاب هذه الجريمة لم تكن هناك مسئولية عن قتل النفس). وهذا تفسير يصطدم بالحديث الذي ذكرناه قبلا أن الله سيحشر كل الوحوش والبهائم لتقتص الحيوانات من بعضها البعض على ما صنعته من ظلم! بنظرية الشيخ فإن البشر (كائنات ما قبل آدم) لن يُحشروا حتى مع الوحوش أو الذباب! ولا قصاص بين بعضهم البعض أصلا لأنه لم تكن هناك (مسؤولية)! أبمثل هذا التأويل يُصرف حديث النبي عن ظاهره؟!

وهذا كله في جانب، والسرد الطويل لغيبيات خيالية ساذجة في جانب آخر!

فمع أن الشيخ يرفض ويذم السرد المُعقَّد للغيبيات فيقول منتقدا علماء بني إسرائيل الذين يعتبرهم أصل التفسير الإسلامي للقصة القرآنية للخلق: (كل ذلك مضى في الغيب فكيف اطلع عليه هؤلاء القُصاص من بني إسرائيل؟! وكيف سلم العقل الإنساني لحكاياتهم بهذه البساطة؟!) = إلا أنه يحشد كتابه بمثل الآتي: (ليس ببعيد أن نفترض أن الخالق.. قدر سبحانه فناء كل البشر من غير ولد آدم وذلك بعد عزل

السلالة الجديدة المنتقاة في الجنة حتى تتم إبادة جماعات الهمج البشرية)! ثم بعدها بأسطر قليلة يقول: (كيف استهلَّ ذلكم العهد؟! ذلك ما لا سبيل إلى تصويره إلا من خلال الكلمات المجردة ولا دور أيضا للخيال في رسم صورته إلا من خلال الإيمان المطلق بعالم الغيب فذلكم مشهد غيبي تم قبل الزمان الإنساني بزمان إلهي)!

ويقول (ولو أننا تصورنا حياة الصدام والصراع بين البشر وسائر أجناس الخلق فإن ذلك يعني أن العلاقات بين الموجودات والبشر كانت هي القوت اليومي.. وقد كانت هذه العلاقات تتنامى دائما كما وكيفا).

ألاحظت كيف يُفرط الشيخ في الاستهلال بكلمات مثل (لو أننا تصورنا - ليس ببعيد)؛ ثم يُكمل بعدها بناء قصة كاملة؟! وكم من مرة أطال في السرد بناء على أمثال ذاك الافتتاح: لو أننا تصورنا!!

ويكتمل هذا المنهج في عنونته الباب الثاني عنده بالآتي: (وقائع القصة)! سيحكي الشيخ قصة الخلق الجديدة التي لم يسبقه إليها أحد، ثم هي (وقائع) لا تخيلات أو تخمينات!

والباب مزدحم بقصة جديدة مليئة بالتصوير والحكي عن أمور غيبية صرفة، ثم أن كل ما يعارضها من قرآن أو سنة يؤول إلى أبعد المسافات؛ فحتى التأويلات القريبة تُبعث إلى أقاصي الأرض لإزالة كل عائق من مسار الرواية التي يُصوِّرها الشيخ!

لنتوقف لحظة واحدة، لنُدرك صنيع الدكتور: لقد رفض أولا تفسيرات علماء بني إسرائيل - الذين هم أهل كتاب عندهم شبهة وحي - بعلة أنهم لم يطلعوا على الغيب وأن تفسيراتهم ساذجة لا توافق العلم لحديث / ثم عرض هو قصة من محض الغيب،

لا وحي فيها، بل تصطدم بظاهر القرآن والسنة صراحة، ولم يقل بها أحد قبلا، لا من علماء الشريعة، ولا من علماء الطبيعة، واعتبر روايته تلك هي الحق!

فما تعريف التناقض؟!

وبالطبع كل هذه التفسيرات والسرديات لم يسبقه إليها أحد من الأقدمين لا بسبب أنها منسوجة بقماش عجيب وغريب من التأويلات الخيالية للتفرقة بين البشر والإنسان -بل لسبب آخر يورده قائلا: (لقد خفيت هذه التفرقة على أجيال العلماء من قبل، سواء القدماء والمحدثون، بعد أن طغى طوفان الإسرائيليات وأصبحت المصدر الوحيد للحديث عن العالم القديم والخلق حتى تصور العلمانيون وأحلاسهم وأشباههم أن الدين مناقض للعلم في هذه القضية الخطيرة)!!

وهذا التناقض من عالم مثله يثير الفضول لمعرفة موطن الزلل، ومبدأ الخلل، لا في المدى البعيد، الاستراتيجي، إذ سبق أن عرضناه في مستهل الفصل، وأبان عنه هو بوضوح، وهو غلوه في تخيل المؤامرة اليهودية، لكن في المدى القريب، التكتيكي = فلو دققت، لوجدت أن الأغصان الواهية التي أخفت البئر، هي نسبة كل التفاسير المنقولة عن خلق آدم ومراحله إلى الإسرائيليات؛ فمن هذه النقطة انطلق الشيخ يهاجم ويخترع النظرية المتضاربة التي عرضناها / والثابت الذي تفهمه من المرور السريع عليه في مقدمة الكتاب، هو كون الصحابة لم يعرفوا قصة الخلق سوى من القرآن فقط، وبلا شرح كاف من النبي.

فهل يصحُّ هذا الزعم؟!

والرد من جمله أحاديث نبوية، أولها ما جاء في حديث عمران بن حصين، أنه قد (جاء نفر من بني تميم إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال: يا بني تميم أبشروا. قالوا:

بشرتنا فأعطنا! فتغير وجهه؛ فجاءه أهل اليمن؛ فقال: يا أهل اليمن، اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم. قالوا: قبلنا! فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يحدث بدء الخلق والعرش؛ فجاء رجل فقال: يا عمران راحلتك تفلتت، ليتني لم أقم!)، وفي لفظ آخر، قال: (كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض) ثم نهض عمران بسبب راحلته ولم يلحق باقي قصة بدء الخلق / إذن قد روى النبي صلى الله عليه وسلم قصة البدء، منذ خلق السماوات والأرض، بل منذ وجود الله القديم وحده قبل حدوث العالم وحدوث المخلوقات، وعليه، فالزعم أن الصحابة لم يعرفوا رواية الخلق من النبي، زعم باطل؛ وهذا ضروري لفهم عدم شطط الأحاديث التي روت قصة خلق آدم، مثل رواية ابن عباس رضي الله عنهما، ورواية أبي موسى الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزَنُ والخبيث والطيب) وبيان أنها لم تكن من زغل اليهود، ولا كيستهم الخبيثة / لكن الشيخ يقول هازئا تلو ذكر تلكم المرويات: (على هذا مضت كل كتب التفسير تقريبا، مع انطواء الرواية على كثير من صور السذاجة. مثل أن يقال أن خلق آدم تم في السماء وأن ملك الموت هو الذي استطاع أن يأخذ التراب من الأرض وأن يعجنه ويخمره فلما خلقه الله أو صوره ألقاه على باب الجنة. ويستمر الكلام في هيئة سيناريو يصف لنا ما جرى في ذلكم الأزل الأدمي فيجعل التراب خليطا من ألوانِ الأرض ليكون أبناء التراب على ألوانها المختلفة وخليطا من أنواع التراب إلى تنوع الأخلاق. وهكذا. كل ذلك مضى في الغيب فكيف اطلع عليه هؤلاء القُصّاص من بني إسرائيل؟!!).

ولنوسِّع الآن من المشهد الذي يصوِّره الشيخ: تخيَّل معي أن الصحابة كافة، وهم ألوف في العدد، يسمعون قول عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما، عن مبتدء الخلق، وأول الملحمة، ومفتتح الوجود الإنساني، وأصل التكليف، وهم جميعا قد ثقفوه قبلا من النبي مُفصَّلا، وبُيِّن لهم في القرآن مرات ومرات، ويكون قول ابن عباس عندهم مُستبشعا، فيه افتراء وسذاجة، معزوا إلى الإسرائيليات وحدها، مناقضا لكلام النبي وكتاب الله = ثم هم يصمتون، بل يوافقون ابن عباس، ولا يُنكرون عليه، ولا يُبطلون قوله، ولا يعارضون مزاعمه بحرف واحد!

فإن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد سرد ما ألَّفه الشيخ، من تطور وارتقاء، وتغيُّر من بشرية همجية إلى إنسانية مُكلَّفة = فما وجه تأييد الصحابة لافتراء ابن عباس -حاشاه وإياهم- ونقضه لهذه الصورة الواقعية، بقصة ساذجة متوهمة؟! كيف الصمت لهذا الجيل، وهو الذي ألِف قيلة الحق، وأولع بالموت دونه، وأرعدت أطرافه بسماع أدنى فرية عن نبيه؟ كيف ووعيد النبي من يكذب عليه النار يُحلِّق فوق الرؤوس؟! لِمَ صمت الصحابة على ذلك القول العباسي الشنيع، المجهور به في الأنام، وأسروا القول الشاهيني الرفيع، الموافق للحق؟!

والحق أنصع من البدر في تمامه: تلك الروايات المرفوعة للنبي، لم تأتِ بحرف يُناقض ما علمه الصحابة من أخبار، ولا برواية تبهت ما اجتمعوا عليه من معارف.

وثاني الأحاديث النبوية التي تناقض نظرية الشيخ، هو الرواية المتفق عليها في الصحيحين، وجاء فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم: (خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة؛ فاستمع ما يحيونك، تحيتك وتحية ذريتك. فقال السلام عليكم. فقالوا: السلام عليك ورحمة الله؛ فزادوه: ورحمة الله. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم؛ فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن).

ووجه الاضطراب، أن الشيخ يزعم بأن الهياكل العظمية التي تم اكتشافها هي لكائنات بشرية ضئيلة، سواها الله حتى صارت إنسانا، هو آدم / فكيف لهذه الكائنات الضئيلة أن تنجب كائنا طوله ستون ذراعا؟

فإن قيل بأن هذا كان من قدرة الله، ومُخصص لآدم، لأنه كان موضع العمل؛ فكيف تزوج امرأة عادية طولها بشري عادي، وابنة بشريين عاديين همجيين؟!

فلو أردنا الجمع بين الحديث المتفق عليه، وبين زعم الشيخ، ونظمه في قول معقول = لقلنا أن ما قبل آدم من خلق، كان مجموعة من العمالقة، حتى يحمل رحِم الأم مثل هذا الكائن العملاق الذي اصطفاه الله / لكن هذا يطعن في أحد العناصر الأصلية في حجاج الشيخ، وهو ضآلة الخلق قبل الآدمي، لضبط النظرية مع مفهوم الاستواء!

إذن كان الأبوان قزمين، أو كائنات ناقصة مشوهة الخلقة، وحتما ليسوا بالضخامة المصوَّرة في الحديث؛ إذن كيف جاء آدم العملاق هذا من فرج ذاك الكائن الضئيل؟ أضِف إلى هذا إشكالية خلق حواء: أكانت عملاقة، أم قزمة ابن أقزام؟ فإن كانت قزمة كيف تزوجت هذا العملاق صاحب معجزة الاستواء؟ وإن كانت عملاقة كيف أنجبها المسوخ الأقزام؟

ثم اجمع كل هذا، مع وصف الشيخ لبحثه بأنه (لم يخرج قيد أنملة عن المعنى القرآني. وهو لا يتناقض في نتائجه مع أي حديث صحيح في السنة المحمدية أكان ذلك نصا أم تأويلا) تزداد عجبا واندهاشا!

ولنُجمل الآن الرد على هذا الجوهر الأساسي، الذي شيد فوقه طرحه: ليست كافة الروايات المتعلقة بالخلق - في أطرها العامة على الأقل - من الإسرائيليات، إذ ثبت سرد النبي لقصة الخلق على الصحابة، فوق بيان القرآن، ولم يقل حرفا مما يدعم

أوهام الشيخ ونظريته، خاصة أن النظرية لا تتحدث عن تفاصيل معقدة - وتلك جاءت فيها المرويات الضعيفة والمنكرة المنفردة بإسرائيليتها، وجاءت فيها كذلك المرويات الصحيحة وافقت الإسرائيليات أم خالفت - إنما تتحدث نظريته عن أصل أصول الخلق والنظرية الإسلامية المتعلقة به؛ فالزعم بخلو السنة من بيان ذلك، والطعن في الأحاديث التي رواها أعيان الصحابة، كابن عباس والأشعري؛ باعتبارها مقتنيات يهودية مستعارة، مجرد خطأ فادح، مردود بالسند العلمي، وبالمنطق العقلي، كما وضحنا.

وآخر ما نعرض له، هو زعم الشيخ أن بين لفظ الإنسان ولفظ البشر عموم وخصوص، وأنهما لا يشيران إلى نفس المخلوق، وهو كلام محض خطأ، نوقش في مطلع الفصل، وقد كانت هذه الحجة الأساس الكبير الأخير لطرحه، فما أوهاه!

ونورد هنا حديثا واحدا فقط، يوضِّح حجم خلل هذا الكلام، وهو حديث متواتر، متفق عليه في الصحيحين، مذكور في السُّنن، إذ يقول سيد الخلق: (يُجمَع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا هذا؛ فيأتون آدم فيقولون له: أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك الملائكة، وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا).

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنا أن آدم أبو البشر، وهذا طرح الدكتور شاهين يقول لنا بل آدم مخلوق غير البشر، وما أدلته؟ الخواء والوهاء وخيوط العنكبوت التي أسلفنا عرضها.

فهذا جملة النقاش الشرعي الموجز لكتابه، أما النقاش العلمي فتزيُّدٌ من جانبنا! إذ أن الشيخ ليس من أهل تلك العلوم، وليس في المكانة كأبسط تلامذة تلك الفنون، فهو

ينقل مثلا معلومة علمية عن صحيفة الوفد! ويزيد التعاطف مع حاله المسكينة بقوله في الهامش معتذرا: (لا يتوافر لدينا مؤلف نعتمده في توثيقها ومع ذلك فنحن نذكره في إطار أنه خبر ظني الدلالة)!!

تلك هي نظرية الشيخ، ولعل أهل الشريعة كانوا أرحم به في هجومهم الذي ضايقه، إن قورن ردهم بما كان سيفعله معه الدراونة لو قرأوا كلامه بتعمق وناقشوا طرحه بجدية وعرضوه كما هو، إذ أنهم لو أنصفوا وحاكموه للعلم لكانوا قد سلخوا سمعته، ووئدوا ملته، وهيجوا عليه حتى الزعران والحرافيش، فهذا الكتاب مهزلة علمية، بل فضيحة كبرى، ولو طُرِحت نظريته تفصيلا في محفل علمي - ولو لأنصار التطور الموجه الغربيين - لهدموا المحفل على رأسه، وارتجت البلدان من قهقهاتهم!

فلا العلم قارب، ولا الشريعة نصر!

الفصل الرابع: النظرية الإسلامية للخلق والتطور

تمهيد

أحاول في هذا الفصل الختامي عرض النظرية الإسلامية للخلق والتطور، وتقديمها في ثوب ملائم قشيب غير فضفاض، ملتزما بمنهج واحد هو التبسيط والتيسير والاختصار، وقد أوجزت فيه أكبر قدر من المعلومات التي تساعد على تصور النظرية، حتى يكون مرجعا أو مُعرِّفا دقيقا مكثفا في آن؛ يُحال إليه المبتدي ويعود إليه المنتهي. وقد فصَّلت النظرية إلى ثلاث قضايا، هي عمودها الفقري في رأيي، وناقشت وقارنت وعرضت موجزا لها مجابهة للنظرية التوراتية التي يقوم عليها عماد الجدل الديني العلمي في الغرب، والنظرية الداروينية التي تصبغ دنيا العلوم كافة بأصباغ لا يُرجى زوالها في قريب الزمان، على قبح المبنى وعفن الأُسِّ.

1. خلق الكون.

يشدُّ الإسلامَ وثاقٌ بالأديان الإبراهيمية السابقة عليه، فمصدر التوراة والقرآن واحد، وإن عبث اليهود في الأول فزادوا وأنقصوا، وحفظ الله للمسلمين الثاني فرتلوا وأنفذوا، لذا تشاكلت الأطر حينا، وتخالفت أحيانا.

وكان من الصنف الأول قصة الخلق الكلية، ومن الصنف الثاني أجزاؤها وتفصيلها الدقيق / فمما استوسق عليه أهل الملتين، أن مدة خلقِ الله سبحانه وتعالى للكون والأرض هي ستة أيام. إلا أن المسلمين قد يخالفوا في دلالة لفظ اليوم، فبينما شاكه اليهود بين اليومين، البشري والإلهي، حدَّث القرآن عن تعدد معايير قياس الزمان،

ومخالفة معيار الله سبحانه وتعالى لمعيار الطبيعة المرصودة، فاليوم عند ذي الجلال قد يكون بألف سنة مما عندنا، وقد يختلف المعيار فيصبح مكيال اليوم خمسين ألف سنة.

ونسبية الزمان هي جذر الخُلف بين النظرية الإسلامية وبين الإبراهيمية المحرفة، وموطن الافتراق، وقد احتجنا إلى عصور طويلة قبل أن يتعرف الإنسان بالنظريات الفيزيائية الحديثة الشارحة لنسبية الزمان، والموضحة لإمكان اختلاف الأكوان ومعايير الوحدات، حتى لان درك هذا الموضوع، ولعب به الصبيان في رواياتهم وآدابهم.

وحاصل تلك النسبية الزمنية = إحالة التقدير الدقيق لزمن خلق السماوات والأرض، فقد يكون مقصود الأيام الستة، ستة آلاف سنة، أو ثلاثين ألفا، أو أكثر! هذا منضو إلى علم الله، ناء عن إمكاننا.

وحاصل إحالة التقدير الدقيق = قبول الإسلام للنظريات العلمية الحديثة، التي تحسب عمر الكون والأرض بألوف الملايين من السنين / غير أن القبول خلاف البت بالصحة، والإقرار بالناتج، والالتزام بالمآل؛ فالله قادر أن يُكين الزمان والمكان بأمر، وينشئ الكون ويفنيه بحرف، وعلمه بعمله أخفى من أن يحيط بكله بشر، ويظفر بدقائقه إنسان.

أما نظرية التوراة، فبتثبيتها دلالة الأيام ألزمت نفسها مضيق تحديد عمر الأرض، بتقدير معلوم، مناكف لكافة المكتشفات والعلوم؛ فالإنسان خُلق منذ خلقِ الأرض، في الأيام الأولى، وسلاسل النسب التوراتية تُقدِّر عمر الكون بعشرة آلاف عام لا غير، وكل هذا مُناف للنظرية الإسلامية ابتداء، ومناقض للنظريات الحديثة انتهاء، ما جعلها تتحدر في دركات غور مظلم.

والنظرية الإسلامية تخالف ذلك كله؛ فأولا: قد أولى الله سبحانه وتعالى ذكر خلق الكون وخلق الأرض والسماوات عناية واضحة، كما أن السماء والنجوم تتردد كثيرا في الخطاب القرآني دلالة على المكانة العالية للكون كحاو لهذه الأرض، بينما تتمحور النظرية التوراتية حول الأرض نفسها ولا يوجد حديث طويل عن (الكون دائم التوسع) الذي تحدث عنه الخالق سبحانه في قوله: (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون).

ثانيا: أكدت النظرية الإسلامية على عدم وجوب صحة معيارية اليوم البشري في حساب عمر الكون والخلق، وعليه فلا معنى للتشبث بنصوص الخلق في أيام قليلة بالمعيار البشري، خاصة أن اليوم مرتبط بالشمس وحركتها، وهذه قضية مشكلة في الرواية التوراتية والتشبث بمعنى الأيام الستة بمعيار أرضي.

حينما تم الخلق في النظرية الإسلامية كان لكون واسع، ظهرت فيه الشمس مؤخرا ثم خُلِقت الأرض وهكذا، فمعيار اليوم الكوني الإلهي الذي تؤكد عليه النظرية الإسلامية أوسع وأكبر وأكثر مناسبة لخلق كون لا يتمحور حول الأرض وحدها، أما المعيار التوراتي البشري لليوم فلا يجعل سوى الأرض مركزا للاهتمام؛ لأن الكون وخلقه يُقاس بأيام النجم الذي يدور حولها هي وحدها! ولعل هذا هو سبب ميلاد نظريات مركزية الأرض في الكون داخل المسار العلمي النصراني واليهودي. أما النظرية الإسلامية فلا تُعامِل الأرض إلا كجزء من كون واسع فيه مخلوقات لا نعرفها (ويخلق ما لا تعلمون).

إذن فلا عمر الأرض يمكن تحديده بدقة - بل هو أكبر مما يقوله المنظرون التوراتيون - ولا الإنسان مخلوق بالضرورة معها، بل خَلقُ الإنسان منفصل متأخر، إذ لا توجد نصوص تماثل التوراة التي تحكينا في سفر التكوين عن الإله الذي يخلق

النور والظلام (لاحظ أن السرد يتعامل مع الأرض باعتبارها خُلقت أولا ثم بعدها جاء النور والظلام) ثم يخلق في الأرض البحار والسمك والطيور، ثم يخلق الإنسان في اليوم الخامس ذكرا وأنثى معا ويأمرهم بأن يتعيشوا من صيد السمك والطيور.. إلخ، مما وورد في سفر التكوين.

بينما تعرض النظرية الإسلامية حدثين منفصلين، خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وتفصل بين الإنسان نفسه والأرض، فإما أنه خُلِق في جنة خاصة، مكان في السماوات العُلى قريبٌ من الله سبحانه وتعالى وإدارة هذا الكون من ملائكة وإبليس قبل تمرده، وإما هو مكان في الأرض كان مميزا / إن النظرية الإسلامية تحتمل هذا وذاك؛ لأنها تفصل بين خلق البشر وخلق الكون وخلق الأرض، في سردية مُركَّبة مُعقَّدة لا تعرفها السردية التوراتية البسيطة.

هكذا تستسيغ النظرية الإسلامية النظريات العلمية الحديثة التي ترفض فكرة لزوم خلق الأرض والكون بخلق الإنسان، بل تعارضها صراحة، فالإنسان مُتأخِّر في الخلق عن الكون، والأرض متأخرة عن الكون متقدمة على الإنسان لا علاقة لها بخلقه ولا علاقة له بخلقها، وعليه فاحتمال أن يكون عمر الكون ألوف البلايين من السنوات وعمر الأرض ألوف الملايين، لا يُشاقُّ النظرية الإسلامية في شيء، بينما يُفحش في معارضة النظرية التوراتية عن الخلق.

كما أن النظرية الإسلامية تختلف عن النظرية التوراتية للخلق في عدم إثبات عمر لوجود الإنسان نفسه على الأرض، فالنبي يرفض أن يصعد بنسبه هو نفسه إلى ما هو أعلى من جد محدد، وقد كذَّب ابن مسعود النسابين، وجاءت بعض الآثار عن الصحابة دعما لهذا الرأي كقول عمر: (إنما ننسب إلى عدنان وما فوق ذلك لا ندري ما هو) / وإن كان في أهل العلم من يخالف ذلك.

ولقد أُلزِم التوراتيون القائلون بأن سلاسل النسب محددة بدقة، بحساب معدل متوسط للأجيال وصل بهم في النهاية إلى عدم قبول عمر لوجود الإنسان يخالف عمر الأرض، وهو الآلاف العشرة؛ بينما أبت النظرية الإسلامية سلاسل النسب الكونية الطويلة التي تصل لآدم، وعليه أعرضت عن تحديد عمر لوجود الإنسان على الأرض مُعيَّن بدقة، فالقول بأن وجود الإنسان على الأرض مخلوقا يصل لثلاثمائة ألف عام مثلا، لا يُخالف النظرية الإسلامية أبدا، بينما يُدمر النظرية التوراتية ويحولها إلى ضِغث على إبّالة!

2. خلق الحيوان.

ينفصل خلق الحيوانات وكائنات الأرض في النظريتين الإسلامية والتوراتية عن خلق الإنسان، فيسبقانه في الوجود، لكن تظل مشكلة الزمن والسرد التوراتي تمايز بينها وبين النظرية الإسلامية.

ففي النظرية التوراتية بدأ خلق الحيوانات في الأيام الأولى لخلق الكون، بصورته التي عرضناها سابقا، وقد خُلقِت على صورتها كما هي بنصوص واضحة لا مراء فيها، أما النظرية الإسلامية فتخالف هذا.

في النظرية الإسلامية يوجد نقاش يحتاج إلى عناية عن الحيوانات، فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن خلق بعضها بصورة إعجازية مثل الإبل، ويتحدث عن إنزال الأنعام (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج)، فكأن الحيوانات تنقسم إلى أنواع، وقد قيل أن الإنزال المقصود للأنعام كان إلى الأرض، فهي لم تُخلق فيها، وهذا القول وإن لم يأخذ به أهل العلم إلا الندرة إلا أن غيرهم لم يستبشعه أو يعتبره مخالفا لأصول الدين، بل كان اهتمامهم منصبا على بحث لفظ (الإنزال) لُغويّا. فماذا يعني هذا؟

إن هذا قد يعني احتمال كون الحيوانات مخلوقة كلها بنفس الآلية وبنفس القدر، وقد يعني احتمال كون بعضها خُلِق في الأرض بينما خُلِق البعض الآخر في غيرها وأنزله الله إلى الأرض، وقد يعني احتمال كونها جميعا خُلِقت ها هنا، وقد يعني احتمال وجود حيوانات مخلوقة بصورة إبداعية خاصة على صورتها مقابل حيوانات أخرى ليست مميزة بهذا القدر، وقد يعني احتمال خلق الحيوانات جميعا على صورتها وبنفس الإبداع.

لذا فإن النظرية الإسلامية لخلق الحيوانات فضفاضة، ليست متيبسة مثل النظرية التوراتية أو النظرية التطورية / أما الأولى فلا تعرف للحيوانات إلا الخلق الخاص آلية واحدة للجميع، وأما الثانية فلا تعرف إلا التطور آلية واحدة للجميع.

هل النظرية الإسلامية مثل هذه وتلك؟ إن ثوب الاحتمالات الواسع يجعل في الإمكان وفي موطن النقاش العلمي البحت تلك الرؤى كافة.

من الممكن أن يكون هناك خلق خاص للجميع - وهذا ما أرجحه - ومن الممكن أن يكون هناك تطور للكل. من الممكن أن يكون هناك خلق خاص للبعض وتطور للبعض الآخر.

لا تتشدد النظرية الإسلامية في ذلك لأن الوقت قبل خلق الإنسان ممتد طويل مجهول المدة، فقد يكون ملايين السنوات، والإنسان حين نزل إلى الأرض كانت زاخرة بالحيوان ومنها كانت القرابين والمعاش ولها الأسماء، فما الذي يمنع أن تكون تلك الحيوانات قد خُلقت قبل ملايين السنوات وقد تطورت؟

لكن هذه الفكرة تؤرق الكثير من مناهضي نظرية التطور المسلمين، فهي تعترف بالنظرية العامة (التطور الكبير) / لكنها تعتبر الإنسان استثناء، وهذا يوقع نظرية الخلق الخاص في إشكالية، ونظرية الخلق الخاص تؤكد أن كل كائن خُلق على صورته الخاصة ولم يحدث تطور ناقل للنوع أبدا.

لكن بهذا الاعتراف تنهار عمومية وإطلاق نظرية الخلق الخاص ليكون تعريفها: أن الإنسان وحده خُلق خلقا خاصا، أما التطور الناقل للنوع فهو الآلية الأصلية لخلق الكائنات!

وهذه إشكالية ضخمة، لأنها ستسلم بالتالي للفلسفة الواهية التي ربطت الأدلة التي يستند إليها التطوريون لإثبات تطور الحيوانات الناقل للنوع (التطور الكبير: من فأر إلى حوت مثلا)، والتسليم لتلك النظرية الرابطة لهذه الأدلة الواهية، سيجعل الإنسان بطبعه يتساءل: ما دمنا قد سلمنا بصحة هذه الأدلة فكيف نستثني منها الإنسان؟

إنك حين تسلم بأن ترتيب مجموعة من الهياكل العظمية في صورة خطية معينة ليس إلا دلالة على حدوث التطور، سيثبت فيك التناقض إن رفضت تقديم التطوريين ترتيبا مماثلا لمجموعة من الهياكل العظمية زاعمين أن هذه دلالة على حدوث التطور في الإنسان أيضا!

لكن ما يهمنا أن نختم به هذه القضية: أنه من الناحية الشرعية؛ فلا إشكال في إمكان تطور الحيوانات عن أسلاف لها؛ لكن الإشكال سيكون في التفاصيل العلمية المترتبة على هذا ولوازم الإيمان بهذا الأمر. كما أن هناك نصا قد يُستخدم كإشارة واضحة لعدم وجود آليات متنوعة للخلق، وهو قول الله عز وجل: (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت)، فكيف تقول بحدوث هذا التفاوت الضخم في آليات خلق الحيوان وحده!

إن القول بالإمكان في هذه القضية لا يعني أنه مُسلَّم به، بل الصواب إثبات الخلاف حول هذا الإمكان النظري ذاته، وجمهور القائمين على النظرية الإسلامية للخلق والتطور سلفا وخلفا يرفضون فكرة تطور الحيوانات، أما من الناحية العملية العلمية فالمشكلات كثيرة وبالعلم ذاته كما عرضنا.

3. خلق الإنسان.

يحسن بنا أن نذكر أولا بالتفرقة بين نوعي التطور، التطور الصغير ويُقصَد به: مجموعة من الاختلافات المتراكمة التي تحدث على المستوى الجيني للكائن الواحد في مدى زمني قصير أو طويل، فأنت مثلا تُلاحظ أن الأجيال الأولى من حشرة معينة تتأثر وتموت بسرعة من أحد المبيدات، ثم تجد أن ما بقي منها – ولو حشرات قلائل – ينتج أجيالا أخرى أقل تأثُّرا بذات المبيد، ثم مع الوقت وتتابع الأجيال تجد مناعتها قد قويت ضده حتى يكاد ينعدم تأثيره؛ فما الذي جرى؟

لقد حدث تطور في جينات الحشرات تم توريثه لأجيال أخرى، وهذا التطور يبدأ في الرسوخ حتى يصبح جزءا لا يتجزأ من الجين ليصبح الأصل، فالعلاقة بين الجينات والمؤثرات ليست دوما ثابتة استاتيكية، بل جدلية ديناميكية في بعض الأحيان.

هذا النوع من التطور لا يتعارض مع النظرية الإسلامية، فالكائن باق من حيث النوع كما هو، ولا يتحول إلى نوع آخر / إن الذبابة في هذا النوع من التطور لا تصير يعسوبا، والإنسان قد تتطور مناعته وقد تتطور ملامحه وتتغير بحكم العوامل البيئية، لكنه لا يصير نوعا آخر. ولا يُنكر هذا النوع من التطور إلا بعض الجهال الأجانب عن هذه النقاشات وعن العلوم الأحيائية عامة.

أما التطور الآخر فهو الكبير، ومقدمات تعريفه: أنه ما دمنا قد أثبتنا حدوث التطور المصغر، وأثبتنا تلك الآلية في توليد سمات وصفات جديدة؛ فما الذي يمنع إذن من إثبات توليد تراكم تلك الصفات والسمات – بعد مئات الألوف من السنين – شكلا آخر يخالف الأول تماما، فيُنبِت الأجنحة ويحفر الخياشيم، حتى يضطر العقل – لأغراض تصنيفية علمية بحتة – أن يسمى هذا الشكل من الحياة: نوعا جديدا؟!

إن التطور الكبير يمكن تعريفه بأنه: مجموع التطورات الصغيرة الحادثة في الكائن الحي خلال زمن طويل، والتي أظهرت نوعا جديدا من الناحية التصنيفية.

والنظرية الإسلامية لها موقف واضح دقيق من هذا النوع من التطور فيما يخص الإنسان، وموقف فضفاض فيما يخص باقي الحيوانات ناقشناه قبل سطور.

إن خلق الإنسان من كائنات سالفة عليه يخالف عمدا أثبت النصوص في القرآن والسنة، ويناقضها بما لا يستقيم إلا بخلل جسيم محال العلاج، فالنصوص تثبت أن آدم مخلوق مميز متفرد لا ريب في حداثة صورته وخلقته على الكون كافة، بينما لا تُثبت النظرية التطورية لحظة محددة لظهور مخلوق اسمه آدم، إنما تجعل الإنسان مجرد حلقة اسمها الهوموسيبينس من حلقات مسلسل طويل يمتد إلى الخلية الأولى بل إلى الحثالة الكيميائية الكونية التي تساقطت على الأرض وصنعت تلك الخلية!

فلا توجد معجزات ولا انتقالات واضحة حاسمة، كل شيء كان يتم تلقائيا بسلاسة، والمسلسل الاستعراضي الطبيعي وصل إلى صورة الإنسان صدفة بعد ملايين الأشكال والمحاولات، وحتى هيئة الإنسان ستتحول يوما بعد ملايين السنوات إلى صورة أخرى أرقى. وقد لعب الأدب والإعلام والفن الخيالي كثيرا على هذه الفكرة: تطورات ما بعد الإنسان الهوموسيبينس، الإنسان الذي يطير أو تنبت له أجنحة أو يتخاطر بلا صوت!

تتحدث النظرية الإسلامية في المقابل عن الإنسان الآدمي تحديدا بصورة خاصة جدا، وباعتباره تفردا كونيا غير مسبوق، فالإنسان خُلق بصورة محددة متكاملة وخُلقت معه اللغة وهذه نقطة هامة، فالتطورية الداروينية تقول بأن اللغة لم تظهر إلا بعد مئات الألوف من السنين ما يكفي لتطور الأحبال الصوتية كي تُخرِج الأصوات وتلونها وتنوعها لإنتاج اللغات / بينما تؤكد النظرية الإسلامية في المقابل أن بعد

خلق آدم فورا بدأ الخطاب والنقاش والتعلم؛ فهذا موطن تناقض لا يُعالَج عند الدراونة.

وللنظرية الإسلامية تفسير للهياكل العظمية التي يكتشفها العلماء ويقولون بأنها كانت لأسلاف آدم، فهي تضع في إطار الممكنات وجود كائنات أرقى من فصائل القردة وأشباهها، لكنها اندثرت وانتهت / وعليه يمكن تفسير هذه الهياكل والآثار باعتبارها بقايا لهذه المخلوقات البائدة، منفصلة تماما عن الإنسان، لا كما يقول التطوريون أنها المخلوقات التي جاء منها الإنسان المعاصر.

هكذا تقدم النظرية الإسلامية تصورا واضحا لخلق آدم: هو مخلوق صُنِع بصورة خاصة جدا ومتفردة ولا علاقة له بباقي مخلوقات الأرض، بل عملية خلقه كاملة لم تجرِ في الأرض ضرورة، ثم نزل إليها بعدما عوقب من الله سبحانه وتعالى ثم رضي عنه بعد توبته، ثم في الأرض بدأ مع زوجته المخلوقة المتفردة في صناعة الأجيال والأبناء وصناعة المجتمع الأول، الذي كان بدائيا لكنه لم يفتقر إلى اللغة ومعرفة الإله، ثم بمرور الأجيال وألوف السنين تكاثر النسل وبدأ التفرق في الأرض والتحول من مجتمع بدائي يعتمد على الصيد إلى مجتمعات الزراعة والرعي، إلى آخر هذه السردية. ومع هذا الاختلاف والتنوع في الصور والأوطان وألوان البشرة تتكون الشعوب والأديان المخالفة لدين التوحيد الذي يُنسى وتُطمَس النوازع الإنسانية لصالح النوازع المعادية للإنسان والعدل والفِطَر؛ فيبدأ بعث الرسل والأنبياء تترى لتذكير الأمم والشعوب بالدين الأصلي والتوحيد والفطرة الأصيلة.

يختلف السرد الدارويني التطوري عما سبق، فيزعم أنه بعدما تحول الإنسان إلى صورته الحالية بدأ في استخدام العقل رويدا رويدا مع التجربة، بدأ في التطور من إنسان بدائي يعيش على الصيد مثل الحيوانات البرية، إلى إنسان اجتماعي يبحث عن

التنظيم اللغوي والسلطوي والاجتماعي، ثم يشرع في اختراع فكرة الغيب والكائنات العلوية التي تحكم الطبيعة، فيظن أن أقوى الحيوانات أو أخبثها أو أطيبها هي المسؤولة عن الخلق والعطايا والتحكم في الطبيعة، وقد كانت فكرة الإله صاحب السلطة ذات فائدة كبرى في تنظيم المجتمع وتهدئة النفس البدائية.

ومع المزيد من التطور المجتمعي والسيطرة الإنسانية على الكائنات والمخلوقات والأرض بدأ يوحد الكائنات العلوية في كائن واحد أقوى لم يستطع السيطرة عليه، ثم مع الوقت وزيادة السيطرة على الأرض بدأت تظهر فكرة الإله الذي يعيش في السماء، ومن هنا بدأ بعض الحواة في ادعاء أنهم يحادثون هذا الإله الذي بعثهم إلى الأرض مرسلين ومنذرين، وظهرت فكرة الكهانة والعرافة والنبوة، حتى استقر هذا الزعم بتكوُّن الأديان الكبرى التي أنشأتها أضخم مجموعة من الحواة الكذبة في التاريخ، وعليه كان الصراع الديني عبثيا غبيا: إذ خلقَ الإنسان نفسه الإله الغيبي المجهول، ثم شرع يقتل باسم هذا الوهم إخوانه في الإنسانية، ولن يسعد الإنسان إلا عندما يستمر في التطور ويتجاوز مرحلة الإنسان الديني إلى الإنسان الطبيعي العقلاني.

إن سردية النظرية التطورية تخالف تماما السردية الإسلامية، وتتشعب هذه الاختلافات حتى تصل لرواية أخرى عن هدف الوجود وخطة الكون وأصل الصراع، ونكتفي بهذا وإلا أقعرنا في أحشاء الفلسفة والاجتماع.

ولقد عرفنا بمحاولة بعض العلماء التطوريين العرب، وبعض أهل الشريعة، أن يوفقوا بين نسخة غير ملحدة من التطور، عمل على ترويجها الغربيون المؤمنون، وبين الإسلام: وهي التطور الموجه.

إن التطور الموجه كان رد التطوريين المؤمنين بالإله على التطور العبثي العشوائي الذي يقول به الملاحدة، والذي لا يُنتِج إلا السردية السابقة، وفيه سعى أصحاب هذه الرؤية على الآتي:

أولا: إثبات التطور كآلية وحيدة للخلق. ثانيا: التأكيد أن المخلوقات مصنوعة بتعقيد يستحيل أن يكون بلا إشراف وتوجيه إلهي لهذا التطور.

فالتطور الموجه باختصار هو: الإيمان بنظرية التطور + الإيمان بإله مبدع صانع قاد هذا التطور ووجهه بوعي عامد.

بينما التطور التقليدي السائد هو: الإيمان بنظرية التطور + الإيمان بطبيعة مؤثِّرة قادت هذا التطور ووجهته بلا تعمد.

وقد عمل بعض المسلمين على نقل نظرية التطور الموجه - ظنا منهم أنهم بهذا يوفقون بين العلم والدين الإسلامي - إلى النظرية الإسلامية العامة عن الخلق، وكان من أبرزهم الدكتور عبد الصبور شاهين والدكتور عمرو شريف، في توجه أطلقت عليه الداروينية المتأسلمة، وهي باختصار: التطور الموجه + تأويل النصوص الشرعية أو إبطالها موافقة للتطور.

وقد كان محور هذا الكتاب إبطال النوع الأخير تحديدا، وهي نظرية عبثية عالة على العلم وعلى الدين معا؛ فلا التطور الموجه هو الرائج في الساحة الأكاديمية العلمية التي ترفض أي تفسير يستند إلى مقدمة وجود الإله؛ ولا التأويلات التي ذكروها يمكن أن تقنع عاقلا متشرعا يعرف دين الله والعقل.

هذا موجز النظرية الإسلامية عن الخلق، وموجز خلافاتها مع النظرية التوراتية والنظرية الداروينية التطورية، سقته باختصار ودقة يكفيان المبتدئ في تكوينه لتصور عام عن القضية وحجمها من البداية إلى النهاية، وأسأل ربي التوفيق.

الخاتمة

في نهاية ذاك الكتاب، أرجو من المسلم القارئ ألا يكون فروقة في مجابهة الباطل، وإن عضه العلمويون بألسنتهم، فإن دالت لهم الدول، وخضع لهم الواقع، إلا أن الحق متأبه على خطلهم، واليقين عيوف عن مزالقهم وتبجحاتهم؛ أما نماذجهم التي رأيتموها في الكتاب، فلم تكن بمعوان في ضبط العلوم، وتيسير البحوث، بل مالت بهم عن اليسر والجلاء، وجلبت عليهم ما لو استقامت العقول، وضاءت الألباب، لاستحق كل زراية ونبذ / لكن لما كان الدين الغالب على عصرنا بالقهر والبغي هو العلمانية، لم يلقوا من أحد كيدا، ولم يَجبَه منهجهم ونموذجهم إلا منهجهم ونموذجهم، وكل نماذجهم العليا لا ريب ستصير أضحوكة التاريخ بعد عقود أو قرون، حينما تخلو سماء الناس من تلك الغمة.

أما ظن بعض المسلمين الضاوين أن لا علاج لهزالهم إلا بمنهج الداروينية، ولا ستر لعريهم إلا بإهاب أحكامها، فلم يجلب لهم إلا التجمجم في الحجاج، والهذر في المنهاج، والأُشابة في النماذج، وواجبنا أن نبين لهم وللناس أي ثمر يانع أفسدوه بصلف أسلمتهم، وأي أرض طيبة أمحلوها بإيغالهم بعيدا عن سلفهم الحق، أهل السنة، إلى السلف الإنساني المشترك المزعوم: القردة!

والله أسأل أن يكون هذا الكتاب قد نفعك في ثقف خبايا البهرج، ووجهك في دركِ مواطن العلل، عسى أن تعلم أي حق في أيدينا، فتسهم يوما في كشف زيوف ذاك الباطل.

الإسكندرية؛ 27 فبراير 2020

المصادر والمراجع

1. **دينيس بويكان و سيدريك جريمو.** *نظرية التطور تاريخ ومجادلات.* [المترجمون] بسنت عادل فؤاد. مكان غير معروف : صفصافة، 2015.

2. **دينيس بويكان.** *البيولوجيا تاريخ وفلسفة.* [المترجمون] لبنى الريدي و مها قابيل. مكان غير معروف : المركز القومي للترجمة، 2017.

3. **Wood, Bernard.** *Encyclopedia of Human Evolution.* s.l. : Wiley-Balckwell, 2011. pp. 182-183. Vol. 2.

4. **محمد رشيد رضا.** *تفسير المنار.* القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب. الصفحات 266-267. المجلد 4.

5. **موريس بيشوب.** *تاريخ أوروبا في العصور الوسطى.* [المترجمون] علي السيد علي. القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، 2005. الصفحات 275-311.

6. **يمنى طريف الخولي.** *فلسفة العلم في القرن العشرين.* مكان غير معروف : هنداوي، 2014. الصفحات 14-17.

7. **بول فييرابند.** *طغيان العلم.* مكان غير معروف : مركز دلائل، 2017.

8. **توماس كون.** *بنية الثورات العلمية.* [المترجمون] حيدر حاج إسماعيل. بيروت : المنظمة العربية للترجمة، 2007.

9. **Scott, Eugenie C. and Branch, Glenn.** "Intelligent Design" Not Accepted by Most Scientists. [Online] August 12, 2002. [Cited: January 7, 2020.] https://ncse.ngo/intelligent-design-not-accepted-most-scientists.

10. **Dean, Cornelia.** Standard-Bearer in Evolution Fight. [Online] September 2, 2013. [Cited: January 7, 2020.] https://www.nytimes.com/2013/09/03/science/eugenie-c-scott-fights-the-teaching-of-creationism-in-schools.html.

11. **Krauss, Lawrence M. and Dawkins, Richard.** Should Science Speak to Faith? (Extended version). [Online] June 19, 2007. [Cited: January 7, 2020.] https://www.scientificamerican.com/article/should-science-speak-to-faith-extended/.

12. **Parliamentary Assembly.** The dangers of creationism in education. [Online] Octobre 4, 2007. [Cited: January 7, 2020.] https://assembly.coe.int/nw/xml/XRef/Xref-XML2HTML-EN.asp?fileid=17592&lang=en.

13. **BBC.com.** 'Design' attack on school science. [Online] September 29, 2006. [Cited: January 7, 2020.] http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/education/5392096.stm.

14. —. Creationism 'no place in schools'. [Online] April 11, 2006. [Cited: January 7, 2020.] http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/education/4896652.stm.

15. **Goldenberg, Suzanne.** US judge bans intelligent design from science lessons. [Online] December 21, 2005. [Cited: January 7, 2020.] https://www.theguardian.com/science/2005/dec/21/evolution.schoolsworldwide.

16. **Raffaele, Martha.** Judge Rules: Intelligent Design Can't Be Taught in Class. [Online] December 20, 2005. [Cited: January 8, 2020.] https://www.livescience.com/3998-judge-rules-intelligent-design-taught-class.html.

17. **Gewin, Virginia.** Scientists attack Bush over intelligent design. *Nature.* 2005, 436, p. 761.

18. **علي سامي النشار.** *مناهج البحث عند مفكري الإسلام.* الإسكندرية : دار السلام، 2012.

19. **Quicke, D.L.J.** *Principles and Techniques of Contemporary Taxonomy.* Sheffield : Springer Science+Business Media Dordrecht, 1993. pp. 1-8.

20. *Progress, pitfalls and parallel universe: a history of insect phylogenetics.* **Kjer, Karl M., et al.** 13, 2016, R. Soc. Interface.

21. *Recapitulation Theory and the New Education: Race, Culture, Imperialism, and Pedagogy, 1894-1916.* **Fallace, Thomas.** 4, 2012, Corriculum Inquiry, Vol. 42.

22. **Doolitle, W. Ford.** Phylogenetic Classification and the universal tree. *Science.* June 25, 1999, Vol. 284, pp. 2124-2128.

23. **Rokas, Antonis, et al.** phylogenies, Genome-scale approaches to resolving incongruence in molecular. *Nature.* October 23, 2003, Vol. 425.

24. *Conflicting Phylogenetics signals at the base of the metazoan tree.* **Rokas, Antonis, et al.** 4, 2003, Evolution & Development, Vol. 5, pp. 346-359.

25. **Cancino, W and Delbem, A.C.B.** A multi-criterion evolutionary approach applied to phylogenetic reconstruction. [book auth.] Peter Korosec. *New Achievements in Evolutionary Computation.* s.l. : Intech, 2010.

26. **Martin, William F.** Early Microbial Evolution from a Physiological Perspective. [book auth.] Mauro Degli Esposti. *Phylogeny and Evolution of Bacteria and Mitochondria.* s.l. : CRC Press, 2018.

27. *Computational Biomechanics change our view on insect head evolution.* **Balnke, Alexander, et al.** 2017, Proc Biol Sci., Vol. 284.

28. **Mason, Kenneth A. and Losos, Jonathan B.** *Biology.* 11. s.l. : Mc Graw-Hill, 2017. pp. 460-469.

29. *Integrative taxonomy refutes a species hypothesis: The asymmetric hybrid origin of Arsapnia arapahoe (Plecoptera, Capniidae).* **Young, Michael K, et al.** 2019, Ecology and Evolution.

30. *Has Neo-Darwinism failed clinical medicine: Does systems biology have to?* **Joyner, Michael J.** 2014, Ptogress in Biophysics and Molecular Biology.

31. **Zhu, Min, et al.** Earliest known coelacanth skull extends the range of anatomically modern coelacanths to the Early Devonian. *Nature Communications.* 2012, Vol. 3, 772.

32. **Stromberg, Joseph.** DNA Sequencing Reveals that Coelacanths Weren't the Missing Link Between Sea and Land. *SMITHSONIANMAG.COM.* [Online] 2013. https://www.smithsonianmag.com/science-nature/dna-sequencing-reveals-that-coelacanths-werent-the-missing-link-between-sea-and-land-25025860/?no-ist.

33. *a complete phylogeny of the whales dolphins and even-toed hoofed mammals (cetartiodactyla).* **Price, Samantha A., Bininda-Emonds, Olaf R. P. and Gittleman.** 3, 2005, Biol Rev Camb Philos Soc, Vol. 80, pp. 445-73.

34. *Phylogenetic relationships among cetartiodactyls based on insertions of short and long interpersed elements: Hippopotamuses are the closest relatives of whales.* **Nikaido, Masato, Rooney, Alejandro P. and Okada, Norihiro.** 1999, Proc Natl Acad Sci, Vol. 96, pp. 10261-10266.

35. *Genes lost during the transition from land to water in cetaceans highlight genomic changes associated with aquatic adaptations.* **Huelsmann, Matthias, et al.** 9, 2019, Science Advances, Vol. 5.

36. *Whales originated from aquatic artiodactyls in the Eocene epoch of India.* **Thewissen, J. G. M., et al.** 7173, 2007, Nature, Vol. 450, pp. 1190-4.

37. *Hippopotamus and whale phylogeny.* **Geisler, Jonathan H. and Theodor, Jessica M.** 7236, 2009, Nature, Vol. 458.

38. *Molecular evolution tracks macroevolutionary transitions in Cetacea.* **McGowen, Michael R., Gatesy, John and Wildman, Derek E.** 2014, Trend Ecol Evol, Vol. 6, pp. 336-46.

39. **Henke, Winfried.** Historical Overview of Paleoanthropological Research. [book auth.] Winfried Henke and Ian Tattersall. *Handbook of Paleoanthropology.* s.l. : Springer, 2015.

40. *Questioning the interpretations of behavioral observations of cetaceans: is there really support for a special intellectual status for this mammalian order?* **Manger, P. R.** 2013, Neuroscience, Vol. 250, pp. 664-96.

41. **Hublin, Jean-Jacques.** Prospects and Pitfalls. [book auth.] Winfrid Henke and Ian Tattersall. *Handbook of Anthropology.* s.l. : Springer, 2015.

42. **Kullmer, Ottmar.** Geological Background of Early Hominid Sites in Africa. [book auth.] Winfrid Henke and Ian Tattersall. *Handbook of Paleoanthropology.* s.l. : Springer, 2015.

43. **Dunn, Rob.** Your Appendix Could Save Your Life: The humble organ may help us recover from serious infections. *scientificamerican.com.* [Online] March 1, 2012. [Cited: February 25, 2020.] https://www.scientificamerican.com/blog/post/your-appendix-could-save-your-life/.

44. *Bacterial Translocation in the Normal Human Appendix Parallels the Development of the Local Immune System.* **Gebbers, Jan-Olaf and Laissue, Jean Albert.** 1, 2005, Annals of the New York Academy of Sciences, Vol. 1029, pp. 337-43.

45. *The appendix may protect against Clostridium difficile recurrence.* **Im GY, Modayil RJ, Lin CT, Geier SJ, Katz DS, Feuerman M, Grendell JH.** 12, 2011, Clin Gastroenterol Hepatol, Vol. 9, pp. 1072-7.

46. *The Brain–Intestinal Mucosa–Appendix– Microbiome–Brain Loop.* **Vitetta, Luis, Vitetta, Gemma and Hall, Sean.** 2, 2018, Diseases, Vol. 6, p. 23.

47. *Effects of Appendectomy on the Onset and Course of Ulcerative Colitis in Chinese Patients.* **Chen D, Ma J, Luo S, Lu L, Wan X, Ben Q,.** 2018, Gastroenterol Res Pract.

48. *A Fresh Look at Whether the Human Appendix Should Be Considered "Friend or Foe" in the Context of Long-duration Remote Expeditionary Medicine (Benivolem aut Insidiator?).* **Christiansen, Rowena.** s1, 2019, Prehospital and Disaster Medicine, Vol. 34.

49. *The vermiform appendix: an immunological organ sustaining a microbiome inoculum.* **Vitetta, Luis, Chen, Jiezhong and Clarke, Stephen.** 1, 2019, Clin Sci, Vol. 133, pp. 1-8.

50. *The Link between the Appendix and Ulcerative Colitis: Clinical Relevance and Potential Immunological Mechanisms.* **Sahami S, Kooij IA, Meijer SL, Van den Brink GR, Buskens CJ, Te Velde AA.** 2, 2016, Am J Gastroenterol, Vol. 111, pp. 163-9.

51. *Coccydynia: An Overview of the Anatomy, Etiology, and Treatment of Coccyx Pain.* **Lirette, Lesley Smallwood, et al.** 1, 2014, Ochsner J, Vol. 14, pp. 84-87.

52. *The coccyx in clinical medicine.* **Protzer, Lauren, Seligson, David and Doursounian, Levon.** 3, 2017, Current Orthopaedic Practice, Vol. 28.

53. *Clinical anatomy of the coccyx: A systematic review.* **Woon, Jason T.K. and Stringer, Mark D.** 2012, Clinical Anatomy, Vol. 25, pp. 158–167.

54. *Self-ratings of genital anatomy, sexual sensitivity and function in men using the 'Self-Assessment of Genital Anatomy and Sexual Function, Male' questionnaire.* **Schober, Justine M., Meyer-Bahlburg, Heino F.L. and Dolezal, Curtis.** 9, 2009, BJUI, Vol. 103.

55. *Innervation of the Male Breast: Psychological and Physiological Consequences.* **Misery, Laurent and Talagas, Matthieu.** 2017, Journal of Mammary Gland Biology and Neoplasia, Vol. 22, pp. 109-115.

56. **ريتشارد دوكنز.** *الداروينية الجديدة: صانع الساعات الأعمى.* [المترجمون] مصطفى إبراهيم فهمي. القاهرة : دار العين للنشر، 2002.

57. **مايكل بيهي.** *صندوق داروين الأسود.* [المترجمون] مؤمن الحسن، أسامة إبراهيم و وآخرون. مكان غير معروف : دار الكاتب للنشر والتوزيع، 2014.

58. *Review: Only a Theory: Evolution and the Battle for America's Soul by Kenneth R. Miller.* **Byrnes, Walton Malcolm.** 4, 2009, Theology and Science, Vol. 7, pp. 427-429.

59. *Re-evaluation of the Haarlem Archaeopteryx and the radiation of maniraptoran theropod dinosaurs.* **Foth, Christian and Rauhut, Oliver W. M.** 2017, BMC Evolutionary Biology, Vol. 17.

60. *Combinatorial genomic data refute the human chromosome 2 evolutionary fusion and build a model of functional design for interstitial telomeric repeats.* **Tomkins, Jeffrey P.** Pittsburgh, Pennsylvania : Creation Science Fellowship, 2018. Proceedings of the Eighth International Conference on Creationism. pp. 222-228.

61. *Debunking the Debunkers: A Response to Criticism and Obfuscation Regarding Refutation of the Human Chromosome 2 Fusion.* **Tomkins, Jeffrey P.** 2017, Answers Research Journal , Vol. 10, pp. 45-54.

62. **Waterson, R, Lander, E and Wilson, R.** Initial sequence of the chimpanzee genome and comparison with the human genome. *Nature.* 2005, 437, pp. 69-78.

63. **Tomkins, Jeffrey P.** Comprehensive Analysis of Chimpanzee and Human Chromosomes Reveals Average DNA Similarity of 70 %. *Answers Research Journal.* 2013, Vol. 6.

64. **DAILY MAIL REPORTER.** Kangaroos 'are closely related to humans', scientists claim. [Online] 2008. https://www.dailymail.co.uk/sciencetech/article-1086928/Kangaroos-closely-related-humans-scientists-claim.html.

65. **Graur, Dan.** Rubbish DNA: The Functionless Fraction of the Human Genome. [ed.] Naruya Saitou. *Evolution of the Human Genome I.* Tokyo : Springer, 2017.

66. **Le Page, Michael.** Most of your DNA is junk after all. *New Scientist.* 2017, Vol. 235, 3135.

فهرس